

ديوان الثقافتين العربية والأرمنية

عدد رقم ٩٩ السنة الرابعة عشرة يناير ٢٠٢٥

نوبار باشا نوباريان

" ١٨٢٥ - ٢٠٢٥ "

مائتى عام على ميلاد أول رئيس وزراء لمصر المحروسة



نشرة غير دورية تصدرها
جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة

رئيس التحرير:
علي ثابت صبري

سكرتير التحرير:
عطا أحمد درغام

العنوان: ٢٦ ش مراد بك - صلاح الدين
مصر الجديدة - القاهرة

تليفون: ٢٢٩١٦٤٤٤ (٠٢)

رابط مجلة أريك الإلكتروني:
https://me-qr.com/l/ArekArabic

رقم الإيداع: ٢٠١٠/١٨٣٧٤



إعداد وتصميم:



المحتويات

الموضوع | الصفحة

ملف العدد ١
نوبار باشا نوباريان مائتى عام على ميلاد أول رئيس وزراء لمصر المحروسة
بقلم: على ثابت صبرى

ملف العدد ٢
أسرار لا يرويها التاريخ عن نوبار باشا
بقلم: جاكلين جرجس

ملف العدد ٧
مذكرات نوبار باشا.. أنسنة كتابة التاريخ
بقلم: أحمد محمد إنبيوه

ملف العدد ١٧
حكاية نوبار باشا الأرمني والاقتصاد المصرى١٨٢٥ — ١٨٩٩ م
بقلم: د. سحر حسن

ملف العدد ٢٤
نوبار باشا.. الرجل والتاريخ
بقلم: هدير مسعد

ملف العدد ٤٨
نوبار باشا في الصحافة الفرنسية في مصر حتي قيام الثورة العرابية
بقلم: عطا درغام

ملف العدد ٣٣
نوبار باشا بين رد الاعتبار والحقيقية التاريخية
بقلم: رباب محمد سليمان

الكنيسة الأرمنية ٣٧
القديس كريكور المنوّر تأسيس الكنيسة الأرمنية
بقلم: أ.د/ محمد رفعت الإمام

مئوية وزارة الشعب ٤٥
مئوية وزارة الشعب
بقلـم د. هشام ابراهيم على

متابعات ٤٧
أرمينيا والأرمن
بقلم: رباب محمد سليمان

السادة القراء الراغبون فى الحصول على هذا الإصدار مجاناً، الرجاء موافاتنا بالبيانات الآتية:

الاســــــم: ....
المهـــنــة: ....
الــعـنــوان: ....
البريـد الإلكتروني : ....
التليـفـون: ....

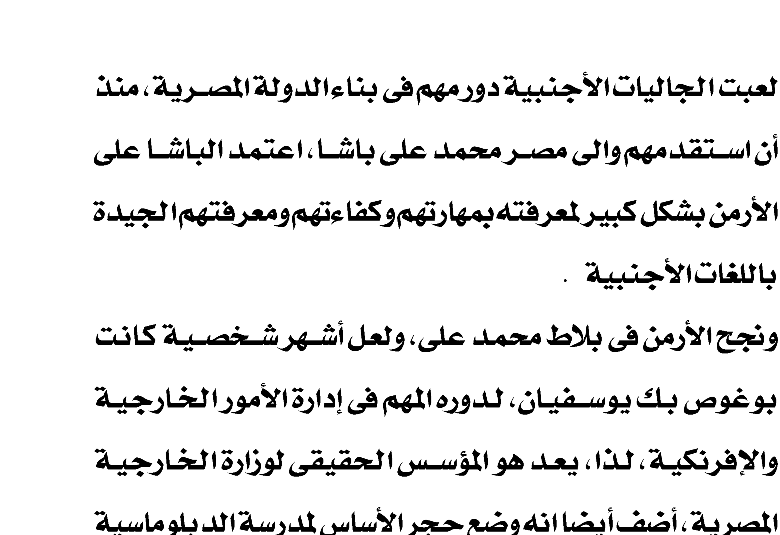




نوبار باشا نوباريان

مائتى عام على ميلاد أول رئيس وزراء لمصر المحروسة

بقلم: على ثابت صبري



لعبت الجاليات الأجنبية دور مهم فى بناء الدولة المصرية، منذ أن استقدمهم والى مصر محمد على باشا، اعتمد الباشا على الأرمن بشكل كبير لمعرفته بمهارتهم وكفاءتهم ومعرفتهم الجيدة باللغات الأجنبية .

ونجح الأرمن فى بلاط محمد على، ولعل أشهر شخصية كانت بوغوص بك يوسفيان، لدوره المهم فى إدارة الأمور الخارجية والإفرنكية، لذا، يعد هو المؤسس الحقيقى لوزارة الخارجية المصرية، أضف أيضا انه وضع حجر الأساس لمدرسة الدبلوماسية المصرية. كذلك كانت ثقة الباشا فيه ليس لها حدود، كل هذه الإمكانيات قد طمئنت الباشا للاعتماد على مزيد من الأرمن، لذلك أصبح بوغوص بك يوسفيان هو مؤسس الجالية الأرمنية فى مصر .

أما عن أول رئيس وزراء لمصر نوبار باشا نوباريان فقد ولد فى أزمير فى عام ١٨٢٥، وظهرت مهاراته مبكراً، فاستقدمه خاله بوغوص للعمل مترجما فى بلاط والى مصر، وجاءت البداية الحقيقية بتوالى امور الأشغال العمومية وأحدث طفرة كبيرة بها، وبعد توالت المهام المسندة الى نوبار باشا.

والى مصر، وجاءت البداية الحقيقية بتوالى امور الأشغال العمومية وأحدث طفرة كبيرة بها، وبعد توالت المهام المسندة الى نوبار باشا.



إلى ان تولى أول رئاسة نظار فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، ليس هذا فحسب بل تناوب على المنصب ثلاث مرات .

ساعدت مصر كل من قدم إليها سواء طواعية أو اضطراريا، ومدت لهم يد العون إلى أن أصبحوا مصريين مع احتفاظهم بعاداتهم وتقاليدهم وممارستها بكل حرية، انطلاقا من مصر المحروسة هى أول فى التاريخ، وبها أيضا أول أمة أقامت الحضارة الإنسانية .

ذكرى مائتي عام على ميلاد أول رئيس وزراء مصر، تذكرنا دائما بإنسانية مصر واستيعابها للآخر دون غضاضة، ووفرت لهم مساحات من الإبداع والتميز .

لعب أبناء الجالية الأرمنية دور مهم وحيوي فى بناء مصر الدولة والأمة





أسرار لا يرويها التاريخ عن نوبار باشا

بقلم: جاكلين جرجس

و نحن نحتفل هذا العام بمائتى عام على ميلاد أول رئيس وزرء لمصر والذى من فرط حبه لهذه الأرض الطيبة قال عنها : «كم من الحكام احتلوها! كم من الشعوب دهست بأقدامها أرض مصر، بدءًا من ملوك الرعاة إلى آخر المماليك، جميعهم تركوا آثار أقدامهم وبصماتهم العظيمة على أرض مصر من أهرامات وتماثيل ضخمة ومعابد ومآذن ومنارات وعجائب كلها سحر ورونق، كلهم استغلوا وتجاوزوا الحدود فى استغلال هذا الشعب الذى عمل بجد وعرق وشيد لهم هذه الروائع والآثار التى نعجب بها دون أن نفكر فى الألم الذى عانى منه الشعب، فى حين أن لا أحد من هؤلاء الحكام، استطاع التغلغل فى أعماق هذا الشعب الذى ظل ساكنا مثل المحيط» ، كتب نوبار باشا هذه المقولة وقتما كانت مصر منفتحة على ثقافات البلدان الآخرى حيث امتازت مصر عن سائر ممالك الأرض بتعدد الجنسيات، واختلاط أهلها بسائر أصناف الناس، وقد خدم حكومتها رجال من أمم شتى منهم الفرنسيون والإنجليز والألمان وغيرهم من أمم أوروبا، والأتراك والأرناءوط والأرمن والشركس والسوريون وغيرهم من رعايا الدولة العليّة.

عزيزي القارئ دعني أدعوك لرحلة عبر الزمن نعود فيها إلى القرن التاسع عشر لنحتفل معًا بميلاد نوبار باشا نوبار يان أول رئيس وزراء فى مصر.

و نتعرف على أهم المحطات في حياته و مذكراته و أهم ملامح هذا العصر و حكومته وسياسته؛ و كيف كان يراه الناس فى عصره هل كانوا مع أم ضد سياسته وإدارته ، هل نجح في إرضاء الشعب و كسب ثقته أم كان هناك معارضين له ولحكومته مثله فى ذلك مثل أغلب رؤساء وزراء بلدنا المحبوبة مصر!!

و لنبدأ من البداية حينما ولد نوبار باشا فى أزمير عام ١٨٢٥ م من عائلة عريقة ترجع أصولها إلى أعالى أرمينيا، و تميز





منذ صغره بالذكاء والحنكة، فارسلته العائلة إلى الخارج للدراسة ودرس فى جينيف ثم تولوز، نوبار باشا نشأ في بيئة تعليمية مميزة، حيث تلقى تعليمه الأولي في المدارس المحلية قبل أن ينتقل إلى باريس لاستكمال دراسته. وهناك درس القانون والسياسة، مما ساعده على اكتساب مهارات أساسية استفاد منها فيما بعد في الإدارة والحكم.

لم يكن نوبار باشا شغوف بالقانون و السياسة فقط بل كان مهتمًا أيضًا بالثقافة والفنون، مما جعله يحيط نفسه بالمفكرين والفنانين من مختلف أنحاء العالم. وأكد على ذلك في مذكراته، متحدثًا عن علاقته الوطيدة بأسرته وأصدقائه، وكيف أن هؤلاء الأشخاص كانوا يدعمونه في كل خطواته. ويعتبر نوبار باشا أول رجل دولة فى مصر فى القرن ١٩ نادى بمبادئ الإنسانية والعدالة الاجتماعية، فى وقت كان الرأى ينبع من مجتمع الصفوة، عُرف نوبار باشا معروفًا بشخصيته المتزنة وحكمته في اتخاذ القرارات فاستطاع بحنكته أن يتدرج فى المناصب و كانت بداية عمله من خلال التعاون مع تاجر أرمنى يدعى موغرديتش ، الذى كان وزيراً ذا نفوذ فى حكومة محمد على، و من خلاله كانت بداية نوبار باشا فى العمل فى الحقل السياسى و تقلده لعدة مناصب فى عهد محمد على باشا،

أبرزها أنه كان سفيرا لمصر بباريس، وتولى مسؤول العلاقات الخارجية لمحمد على –منصب مشابه لوزير الخارجية حاليا– وفى عهد إبراهيم باشا تم تعيينه مديرا للسكة الحديد والجمارك، ثم وزيرا للأشغال والخارجية وتدرج فى المناصب حتى وصل إلى رئيس لنظّار مصر وهو منصب رئاسة الوزراء.

وفى عام ١٨٤٢ استدعاه خاله بوغوص بك الذى كان يشغل منصب ناظر التجارة والأمور الإفرنجية لوالى مصر محمد على، وعمل نوبار سكرتيراً فى مكتب خاله حتى وفاة بوغوص فى عام ١٨٤٤، وبعدها انتقل ليصبح سكرتيراً ومترجماً لمحمد على، ثم التحق بخدمة إبراهيم باشا، الذى اصطحبه فى كل أسفاره حتى وفاته فى عام ١٨٤٨ وتراجع دوره فى عهد الوالى محمد سعيد، ثم واصل الصعود فى عهد الخديوى إسماعيل.

وفي عام ١٨٤٧ أصبح نوبار مترجمًا لـ إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا. فصحبه معه في مهمة خاصة إلى أوروبا وقد رقي لرتبة أميرالاي (عميد) عام ١٨٤٩ أصبح نوبار ناظراً للأشغال العمومية بعد تأسيسها على يده عام ١٨٦٤، كما أسندت إليه إدارة السكك الحديدية ولم يكن لها مدير خاص وظلت تابعة له حتى يناير ١٨٦٦، ثم تولى مهام منصب ناظر الخارجية من ١٠ يناير ١٨٦٦ إلى ٦ يناير ١٨٧٤، فنظارة المالية، ثم ناظراً للتجارة في سبتمبر ١٨٧٥ حيث تأسست هذه النظارة في ذلك العام، وتولاها نوبار إلى جانب نظارة الخارجية، ثم ناظراً للخارجية مرة أخرى حتى يناير ١٨٧٦.

بدأ نوبار فى الصعود إلى المناصب العليا فى عهد الخديوى إسماعيل عندما استدعاه الخديوى ليكون أول رئيس وزراء فى تاريخ مصر الحديثة عام ١٨٧٨م، وكانت أول نظارة «وزارة» لمصر تضم سبع نظارات وهى الخارجية والحقانية والداخلية والجهادية والأوقاف والمعارف والأشغال، وتولى نوبار وحده بجانب رئاسة الوزراء وزارتى الخارجية والحقانية.

أصاب مصر في أثناء ذلك أزمة مالية مما تراكم عليها من الديون، فثار المصريون عليه بسبب نفقات الخديو إسماعيل في سبيل عمارة القاهرة واستصدار الفرمانات الخاصة بوراثة العرش وغيرها من الأمور، حتى أفضى الأمر إلى مراقبة الدول والسعي نحو غل يديه وضبط الميزانية والاقتصاد فيها، ورأت الدول أن تقيد حكومته بالشورى، فاقترحت عليه تشكيل أول وزارة مسئولة عن إدارة شئون البلاد (مجلس النظار) فقرر الخديو إسماعيل بتكليف نوبار لتشكيل النظارة، فشكلها في ٢٨ أغسطس ١٨٧٨، وقد سميت بالنظارة الأوروبية نظراً لوجود وزيرين أوروبيين بها؛ أحدهما إنجليزي والآخر فرنسي. ولكن ذلك لم يكن ليرضي الخديو إسماعيل، فلم تمضِ على تلك الوزارة الشورية سبعة أشهر حتى حلها إسماعيل في ٢٣ فبراير ١٨٧٩ وعلى أثر ذلك تدخلت الدول الأوروبية وخاصة انجلترا لدى السلطان العثماني لخلع الخديو إسماعيل، فصدر فرمان في ٢٦ يونية ١٨٧٩ بخلع إسماعيل وتولية نجله توفيق باشا.

بعدها كتب نوبار باشا مذكراته، وهى ثرية بالكثير من المعلومات والأحداث والأسرار حكى نوبار باشا فى مذكراته كيف تولى محمد على حكم مصر بفرمان من السلطان عبد المجيد، فى حق الحكم بالوراثة فى أسرته، ولكن يظل الحكم جزءاً من الإمبراطورية العثمانية وجميع المعاهدات السياسية والاقتصادية التى وقعها الباب العالى واجبة للتنفيذ فى مصر.

ورغم جدية الرجل فى طرحه للأحداث إلا أنه ذكر موقفا طريفا، ذهب نوبار، ليلة زواجه في القسطنطينية عام ١٨٥٠، للقاء السير ستراسفورد كاننج سفير بريطانيا ذي الإرادة الحديدية، فأخضعه للانتظار "القاتل" أربع ساعات، كإحدى الطرق لكي يدرك نوبار أن السفير "أعظم وأكبر" من الوالي عباس باشا.

ثم استقبله السفير "دون أن يتحرك من مقعده الوثير، وأشار لي بحركة من يده إلى الكرسي". وقد أشفقتُ على نوبار، وأنا أتخيل مرور أربع ساعات من الانتظار، ساعات كبيسة، على شاب في الخامسة والعشرين، تنتظره عروسه، وهو ينتظر لقاء السفير، ويعلم أنه يتعمد إذلاله.

مات عباس وجاء الوالي سعيد باشا، وحدث بينه وبين السفير البريطاني في القسطنطينية السير هنري بولورسوء تفاهم، فأرسل نوبار إلى السفير، وانتظر في غرفة عارية، نحو نصف ساعة. ثم دخل نوبار، وأدهشه التناقض بين صالون الانتظار ومكتب السفير، فالجدران تكسوها ستائر من الهند، كما توجد هدايا تذكارية، وتماثيل، ومنضدة مغطاة بمفرش داكن عليها كميات من الأوراق، حتى إن السفير "كان يصعب عليه العثور على نفسه وسط هذا كله"، وكالعادة استقبله السفير "جالساً وطرف حذائه الرفيع يطل من قدمه المسجونة وراء المكتب بشكل مثير للضحك من تحت المفرش الذي يكسو مكتبه" بدا السفير وقوراً نبيلاً، كأنه قادم من القرن الثامن عشر، "ينقصه فقط منديل الرقبة لتكتمل هذه الصورة التي تبدو من الخيال".

بين عامي ١٨٥٠ و١٨٦٨ تغير اللورد ستراسفورد كاننج، لم يعد صاحب منصب سياسي. وفي لندن، استقبل نوبار من دون انتظار،

لكنه احتفظ بهالة الهيمنة، والعيون المتسلطة نفسها.
لمح نوبار أصابع "تخشبت بفعل النقرس، وأرجلاً مريضة مضمدة بقماش من الشاش."
يستطرد نوبار باشا فى سرده للاحداث بطريقة كوميدية قائلًا حدث مع محمد على باشا، وبعض رسائله، التى كان يوجهها إلى قواده، ومنها تلك التى بعث بها إلى نجله وقائد قواده فى الإسكندرية، عثمان باشا، عقب وفاة مترجمه بوغوص بوسفيان، الذى كان لسان الوالى فى الاتصال بالعالم الخارجى، وقد علم أن عثمان لم يخرج فى وداعه إلى مثواه الأخير، وبعد أن وصفه بنجلى المبجل جداً المحظوظ جداً، قال له إنك غبى وحمار، كيف لا تصطحب أنت وحاميتك وجنودك الرجل، الذى رباك وأخلص لك إلى مثواه الأخير، وأمره بعد تحذيره من عصيانه باستخراج الجثمان وإعادة دفنه مرة أخرى فى جنازة عسكرية كبيرة.
وتشير المذكرات إلى قوة شخصية محمد على، فلكى يؤمن طريق التجارة من الهند لإنجلترا عبر مصر، لم يحتج سوى أن يجعل البدو مسؤولين عن كل شىء يحدث فى الأراضى، التى يتحركون فى صحرائها، فكانت البضائع تصل دون أن تعبث بها يد واحدة ولم يلجأ محمد على فى بداية تأسيس خدمة توصيل الطرود والبريد والبضائع سوى إلى أن يشنق ثلاثة من رؤساء القبائل على أحد أبواب القاهرة، وهو الباب المطل على الصحراء، وكان ذلك عقب حادث سرقة وحيد، وبعدها لم يشهد الطريق واقعة واحدة تخل بالأمن، حتى تم تأسيس خطوط السكة الحديد، بعد نصيحة نوبار لعباس بتأسيسها خلال عامى ١٨٤٩ و١٩٥٠.
ولفت نوبار باشا إلى أن الحديث بدأ عن السكة الحديد وقناة السويس أواخر أيام محمد على؛ يضيف نوبار مستطرداً أن الباشا الكبير «فقد عقله تماماً» وصار وهو فى سن الشيخوخة يتخيّل نفسه وهو على رأس جيشه الجرار، يحارب على أبواب القسطنطينية، يعطى أوامر لضبّاط لم يعد أحد منهم على قيد الحياة؛ يقول نوبار عن محمد على أنه فى أيامه الأخيرة كان محمّد على «يدرك الحالة التى هو عليها ويراقب نفسه، وما إن يشعر بأنه سوف يدخل فى نوبة هذيان وفقدان العقل إلا وقد كان يختلى بنفسه، فى عزلة تامة، محاولًا بكل قواه أن يستعيد تسلسل أفكاره»، وعندما بلغه خبر وفاة ابنه إبراهيم قال محمّد على: «كنت أعرف.. كان قاسيًا معى كما كان مع الجميع. لقد عاقبه الله وأماته».
بينما يؤكد نوبار أنه خدم مع عباس باشا وأحبه كثيراً، كما تحسّر عليه يوم اغتياله طعنًا بالسكاكين على يد مجموعة من حرّاسه فى تموز ١٨٥٤: «كُتم خبر الكارثة لمدة ثمانى وأربعين ساعة، نُقل خلالها جثمان عباس من بنها إلى قصره بالعباسية فى وضح النهار، بعد أن تم إجلاسه بثيابه الرسمية فى عربة تجرها أربعة خيول كما لو هو على قيد الحياة».
ذهبت الولاية من بعده إلى عمّه محمّد سعيد باشا، نجل محمّد على، الذى لا يُخفى نوبار عدم إعجابه به بتاتًا.
يقول نوبار إنه ومع غياب عباس فقدت مصر طبيعتها الشرقية، وتغلغل الأجانب فى أروقة حكمها، وصاروا يتحكمون بالوالى الجديد ضعيف الإرادة والشخصية، الذى حاول بشتى الطرق إرضاءهم صار القناصل هم حكام مصر الحقيقيون، لدرجة أن أحدهم تجرأ على زيارة قصر الوالى من دون موعد وهو فى ثياب النوم. كان سعيد وقبل وصوله إلى الحكم يَعمل قائداً لأسطول أبيه البحرى، «مع أنه كان يعانى من دوار البحر»، وقد دخل التاريخ لقُربه من رجل الأعمال الفرنسى فيرديناند دى ليسيبس، الذى أعطاه سعيد امتياز شركة قناة السويس، والتى كلفت ٢٠٠ مليون فرنك فرنسى.
يؤكد نوبار أنه عارض المشروع من يومه الأول، كما عارض أعمال السخرة التى حُفرت عن طريقها القناة، ومات خلالها الآلاف من المصريين. يقول نوبار: «كان من شأن القناة أن ترفع من الأهمية التجارية لأراضى مصر، ولكن ستؤدى إلى القضاء عليها سياسيًا».
أسرف سعيد لكى يتمكن من مجاراة الملوك والنبلاء، وأغدق بالهدايا والامتيازات على الأجانب فى القاهرة، الذى بلغ عددهم ١٥٠ ألفًا، وركّب دينًا كبيراً على نفسه وصل إلى ٨٨ مليون فرنك، تم اقتراضه بفائدة فاحشة من المصارف الأوروبية. ورغم كره نوبار لسعيد إلا أنه يعترف بإنجازاته، ومنها سماحه للفلاح بأن يمتلك الأرض التى كان يزرعها «حتى لو كانت ملكًا للحكومة»، كما قام سعيد بتعيين شقيق نوبار حاكمًا على السودان، ليكون أول حاكم مسيحى على بلد عربى، بالرغم من معارضة بعض المحيطين به، الذين وصفوا نوبار وشقيقه بالكفار والملحدين؛ لكن أخيراً عيّن الوالى نوبار مديراً لسكك الحديد سنة ١٨٥٧، التى كانت تدار فعليًا من قبل شخص أجنبى يُدعى المستر غرين، شقيق قنصل بريطانيا العام فى مصر. وعندما طلب هذا الأخير الاستقالة، كافأه سعيد بعشرة آلاف جنيه إسترلينى دون التفكير بمدى تأثير ذلك على الموظفين المصريين «الذين عملوا طوال حياتهم بمرتب ضئيل، وماتوا وهم فى الخدمة، أو أخرجوا على المعاش لينالوا مبلغًا تافهًا حقيراً».

وعلى هامش المذكرات يكتب نوبار باشا لزوجته هوامش شخصية حميمة، ففي مواجهة تغوّل شركة قناة السويس ودفاع دي ليسبس عن السخرة، ودفاع دي ليسبس عن السخرة، كان نوبار في القسطنطينية، يطالب بحق الفلاح العامل في القناة في نيل أجر "من قرش إلى اثنين في اليوم."

ومن هناك كتب إلى زوجته، في أيلول/سبتمبر ١٨٦٣: "يا إلهي، يا لهم من رجال حتى الوجهاء منهم يجدون أنه من العدل أن نجعل الفلاحين يعملون دون أجر ودون طعام وأن يتم استعبادهم وإبعادهم عن زوجاتهم وأطفالهم لمدة خمسين يوماً. كم أود أن تتم معاملة كل هؤلاء الذين يتحدثون هكذا كما يُعامل الفلاح على أيديهم."

إنه سقوط الحداثة في الاختبار الإنساني، وسفور التناقض بين النظرية والتطبيق، واعتبار شعار الثورة الفرنسية امتيازاً للفرنسيين وللأوروبيين وحدهم، أما غيرهم فليست له حقوق، لا إخاء ولا مساواة. وفي تشرين الأول/أكتوبر ١٨٦٣، كتب نوبار إلى زوجته أنه يعمل في "الجحيم"، محاولاً إقناع ممثلي شركة قناة السويس بحقوق مصر وبالعدالة للفلاحين، وهذا مجهود شاق "يفقدني الكثير من شبابي". وفي رسالة تالية يقول إنه عانى الأرق، وظل يعمل على أعصابه طوال النهار، "لقد أصبحت أكثر عصبية منك."

ويضيف نوبار أن جنون سعيد أوصله إلى جلسات تحضير الأرواح، حيث كان يستحضر روح أبيه فى كل ليلة ليتناقش معه فى أمور الدولة المصرية، كما قام بتعيين قرصان على رأس البحرية المصرى يدعى حافظ باشا. وفى ختام عهده وقبل وفاته سنة ١٨٦٣، وقف سعيد أمام نوبار باشا وبكى بحرقة كما بكى إبراهيم باشا من قبله قائلًا: «لقد خربت مصر.. خربتها تمامًا. ماذا سيقولون عنّى؟».

انتقل بعدها نوبار إلى خدمة الوالى الجديد إسماعيل، نجل إبراهيم وحفيد محمّد على، الذى وبحسب صاحب المذكّرات، «وجد مصر صغيرة جداً عليه»، فأراد التوسع نحو سوريا التى كان قد حكمها أبوه لمدة تسع سنوات ما بين ١٨٣١ - ١٨٤٠.

ولكنه أقلع عن هذا المشروع لأن شعوبها كانت تُعد «شعوباً مثيرة للشغب، وتتكون من أعراق متعددة، وهى بعيدة تماماً فى تكوينها عن الشعب المصرى، السهل فى إدارته».

وتمضى مذكرات نوبار باشا إلى أن تنتهى عام ١٨٧٨، عند عزل إسماعيل عن الحكم ووصول توفيق إلى السلطة، الذى قام بتعيين نوبار رئيساً للوزراء مرة ثانية سنة ١٨٨٤.

قبل استقالته فى الفترات الأخيرة حصل على نيشان النجمة الهندية من ملكة بريطانيا وكانت من الدرجة الأولى استقال فى ثالث فترة لتولية الوزارة بسبب المرض، وانسحب من الحياة العامة وذهب إلى باريس.

و تدق ساعة الزمن لتعلن وفاة الباشا فى ١٤ يناير ١٨٩٩ و تمهلنا القليل لنعود للقرن الواحد و العشرين مرة أخرى و نشاهد عن قرب كيف تم تكريم نوبار باشا فقد كان له العديد من الإنجازات فهو:

من أعظم الشخصيات الذين كانوا فى مصر، ساهم فى الكثير من تطورها وكانت له الكثير من الأعمال المهمة.

له الفضل فى البدء بأنشاء السكة الحديدية، كما كان عامل هام حينها للتخلص من الجرائم وانتشار الأمن في البلاد.

قامت الدولة بتكريمه من خلال وضع اسمه على أحدى الشوارع فى وسط مدينة القاهرة، كما وضعت أسمه على مدينة كاملة فى محافظة البحيرة بمصر وسميت بالنوبارية الجديدة كما أدرج الجهاز القومى للتنسيق الحضارى، برئاسة محمد أبو سعدة، اسم نوبار باشا، أول رئيس وزراء مصر، في مشروع حكاية شارع، حيث تم وضع لافتة على باب شارعه الذى يقع بالقاهرة الخديوية.

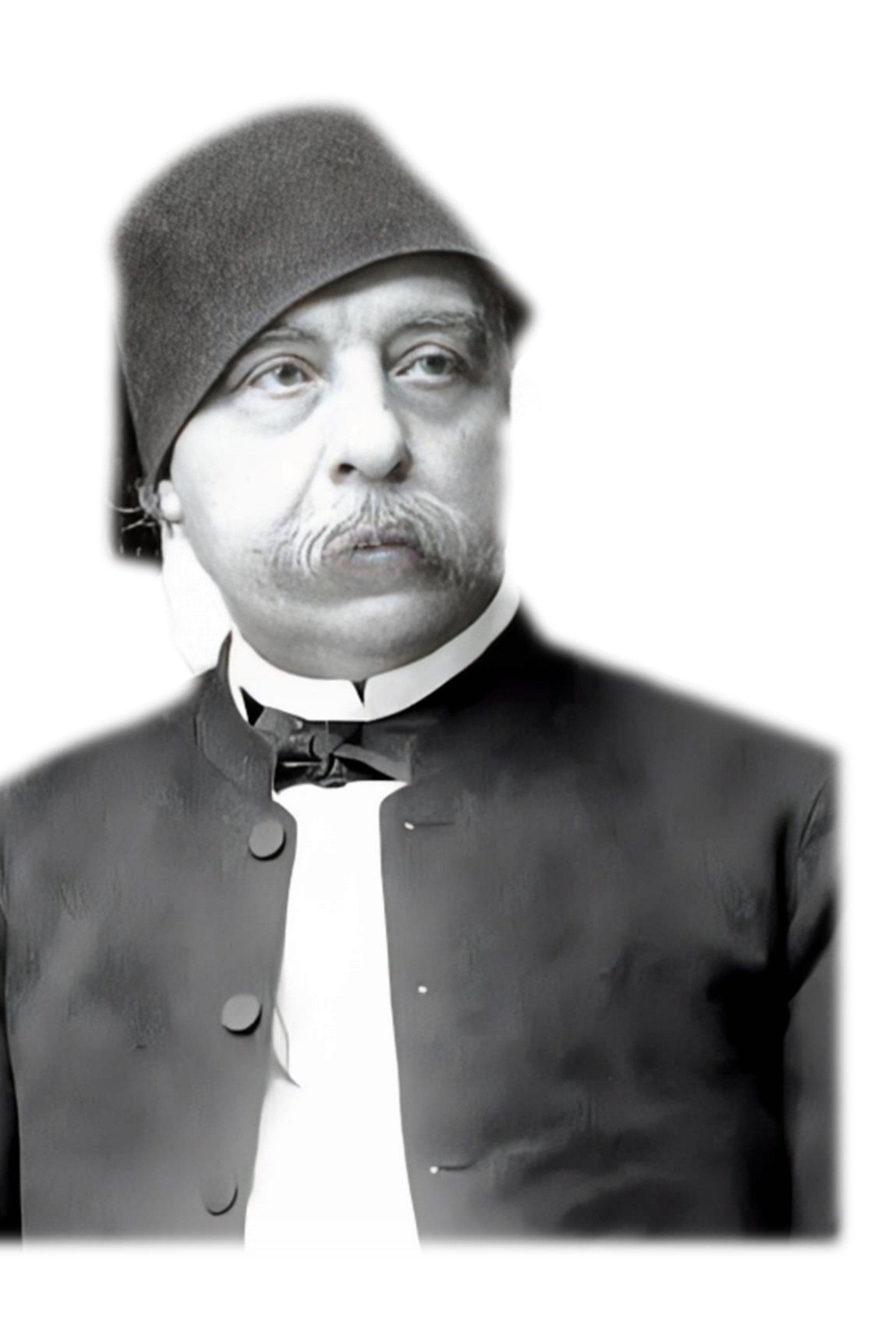
ترك لنا نوبار باشا مذكراته و هى وثيقة و أرث بالغ الأهمية يعبر بصدق عن ما جرى فى تلك الحقبة فنهل منها محبى التاريخ و استحضروا الأحداث فى رواياتهم و كتبهم التى صدر منها على سبيل المثال كتاب غاية في الأهمية ألا وهو "نوبار باشا خادم مصر الكبير" باللغة العربية.

وقام الأستاذ جارو طبقيان بترجمة هذا الكتاب من تأليف السيدة فيكتوريا أشاروني. وصدرت هذه الدراسة عام ١٩٥٠ حيث حازت على جائزة واصف بطرس غالي وجمعية مصر – فرنسا؛ كما صدرت عن «دار الشروق» المصرية، كتاب «مذكرات نوبار باشا» التي ضمت واحداً وأربعين فصلاً، إضافة إلى مقدمة وملاحظات كتبها ميريت بطرس غالي.

و لأن سيرة نوبار باشا دسمة و غنية نظراً لمعاصرته فترة مهمة من فترات التاريخ المصري عموماً، ودائماً وابداً لم يكن ينظر إلى شخصه على انه أرمني اكثر ما كان يعتبر نفسه مصري حتى وان لم يكن يتحدث العربية، وهذا ليس بغريب حيث كان اغلب ولاة مصر وقتها لا يتحدثون العربية، وانما نوبار كان في قلبه مصر ودائماً ما خاض معارك من اجل مصلحة الشعب المصري الكادح من اهمها انجازاته في القضاء على السخرة وتحسين حال الفلاح

المصري بشتي الوسائل والطرق، محاولًا المساواة بين هو وبين قرينه الأوروبى مما جعل الجميع يطلق عليه وقتها لقب "أبو الفلاح"؛ اما على الصعيد السياسي فكانت له صولات وجولات داخل مصر وخارجها اثناء تأسيس المحاكم المختلطة، وايضًا معركته ضد جشع فريناند ديلسبس وقت حفر قناة السويس وما بعدها حتى ان وصل الامر إلى ساحات القضاء الفرنسي، وهو ما تم ذكره بوضوح فى رواية " الباشا " للكاتب سمير زكى و التى أصدرتها جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة .

فى واقع الأمر لا تسع الصفحات لسرد رحلة حياة وإنجازات نوبار باشا لكن و نحن نحتفى بعيد ميلاده المائتين هل لنا بإحياء تذكاره من خلال حفل تكريم و ندوات ثقافية توزع فيها كتيبات و نبذات لتعريف الاجيال الحديثة بعبقرية هذا الرجل أجدها فرصة لعمل معرض فنيا يعرض صور و لوحات تاريخية لهذه الحقبة يستفيد منها محبى الفنون و التاريخ هل تواتينا الفرصة لعمل فيلم تاريخى يحكى قصة حياته و الحقبة التى عاصرها ، و لنواكب الشباب سكان الفضاء الألكترونى يمكننا عمل قناة على اليوتيوب أو المنصات الإلكترونية نحكى فيها إحدى فصول التاريخ برئاسة نوبار باشا فى شكل قصص تاريخية مشوقة تجذب الأطفال و الكبار و نستكمل الحكى بعباقرة و مشاهير الأرمن من بعده فى حالة يتضافر فيها الإبداع و الفن مع عبق التاريخ لنسمو بالإنسانية و نعلو بالقيم و المبادىء داعمين لفكرة إنصهار و اندماج الاعراق و الشعوب مع بعضها والاستفادة من معطيات الحضارة المصرية و الأرمنية تعميقا للهوية ومحبة الوطن .





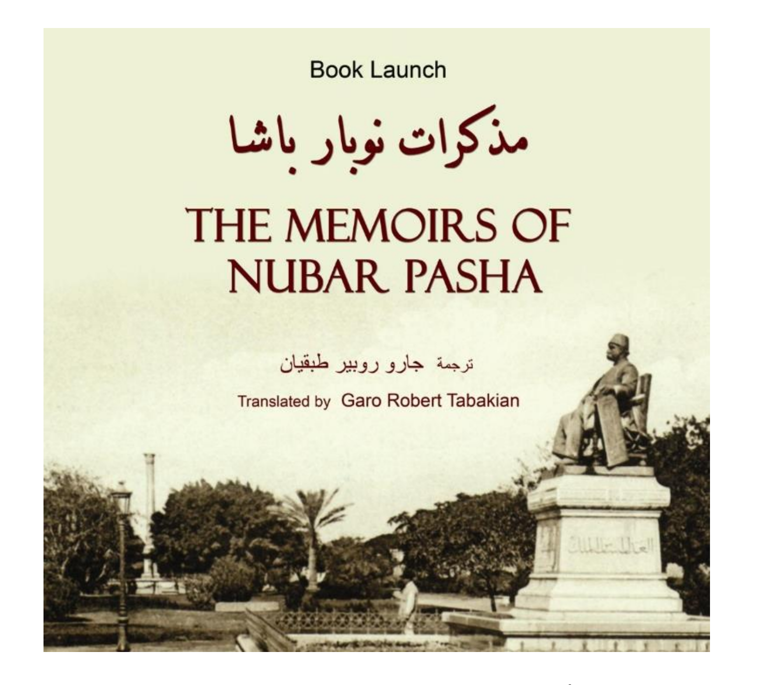


مذكرات نوبار باشا.. أنسنة كتابة التاريخ

بقلم: أحمد محمد إنبيوه

يشكل نوبار باشا طريقه مختلفة في كتابه تاريخ مصر، (على افتراض أنه كان يبغي كتابة التاريخ من الأصل) طريقه اكثر انسانيه، يحاول من خلالها أن يروي شهادته على زمنه ببشره وناسه وحكامه وأحداثه. خصوصا وأنه تقريبا عاصر تجربة التحديث من بدايتها لوصولها لقمتها خلال القرن ١٩ . وربما نوبار بهذا يعطينا فرصة لفتح نافذة صغيرة، فمن خلال مذكراته الشخصية التي كان يكتب فيها انطباعاته التي كان يسجلها بشكل شبه دوري في خطاباته لزوجته، نرى من خلالها حكام مصر من محمد علي لإبراهيم ومن عباس لسعيد وإسماعيل. نراهم إنسانيا من لحم ودم، بشرا صنعوا التاريخ، لكنهم كانوا صنيعة ذاتهم وضعفهم وشهواتهم. كانوا بشرا في أخطائهم وإنجازاتهم. ونوبار هنا يكتب ويدون عن هؤلاء البشر في كلمات، كانت في حدتها كالسكين أحيانا. وما صنعه نوبار من كتابة ذات مترع إنساني، لم يكن جديدا بالكلية، ففي بدايات القرن التاسع عشر، حاول الجبرتي أن يؤرخ ويدون تحت ظل الباشا محمد علي الثقيل، لكنها كانت رؤية لامست الباشا إنسانيا من الخارج، ولم نرى في كتاباته هذا الظل الناتج عن الاقتراب والملاحظة الإنسانية من أقل مسافة نتيجة الاحتكاك المباشر، وبالتالي غاب الجانب الشخصي. الذي حضر بكثافة كبيرة لدى نوبار.

ولأن نوبار كتب مذكراته في تسعينات القرن التاسع عشر، فإنه بهذا ترك مسافة معتبره بينه وبين حرارة أغلب الأحداث، فنبتت كلماته على مهل. ولهذا بدت رؤيته أكثر عمومية وتجريدا، لكنها في الوقت نفسه لم تفقد ألقها



المعلوماتي؛ لأن الرجل كان يدون بشكل دوري في خطاباته لزوجته الأحداث المهمة. فكانت الميزة المعتبرة هنا، الرؤية التقييمية العمومية لعصر ورجال، مع كثير من المعلومات التي لا تتأتى إلا لمن كان فاعلا في كواليس الأحداث، ممسكا مشاهدا لعظم الأحداث وقت أن كانت تكسوها لحمة الأحداث التاريخية. وهؤلاء الذين عاصرهم نوبار كانوا نعم مؤسسين عظام، لكنهم كانوا بشرا أيضًا، كانت بشريتهم هذه هي التي أعطت لكتابة نوبار مذاق مختلف، فعندما ترى تصويره للحظات الترقب الحذر والصدامي وربما الخوف والريبة بين الأب وأبنه، بين محمد علي وإبراهيم.. أو عندما ترى هواجس إبراهيم وإحساسه الثقيل بالذنب تجاه من سفك دمائهم. أو عندما يتحول إبراهيم لحيوان شرس تحت تأثير الخمر، ولا يرى فيمن حوله إلا تكملة لإرادته. عندما ترى كل هذا وغيره، عبر قلم نوبار، تدرك

أنك تقرأ كلمات لرجل ساهم في صنع تاريخ القرن التاسع عشر، لكنها كلمات كاشفة ولها مذاقها الخاص، وليست فقط منشغلة بالتدوين، بل منشغلة بالتأمل بشكل جوهري. وقد قيل عن نوبار وأسلوبه وطريقته "إنه كان فصيح اللسان قوي العارضة، يمزج كلامه بشيء من التهكم المستور، بارعًا في الانتقال من الشدة إلى اللين وبالعكس ."

وعن زوجته التي كتبت المذكرات من خلال خطاباته إليها "كانت قرينة نوبار كريمة كيفورك بك أراميان من كبار الأرمن في الاستانة. اقترن بها وهو في الرابعة والعشرين من عمره.. فكانت له كنزاً في بيته وعضداً له في سياسته الخارجية؛ لأنها كانت نسيبة أبرام الذي حاز ثقة السلطان عبد العزيز. فبتلك القربى سهل نوبار سبيله السياسي غير مرة في الاستانة وحصل على معظم الثقة من إسماعيل باشا خديوي مصر. لقد خلقت قرينته لتكون زوجة لرجل سياسي مثله. لأنها كانت عزيزة المقام عند الأسر الكريمة، وجميع من عرف ظرفها وسمو فضلها. مهتمة أشد الاهتمام بكل ما يعني زوجها جديرة بأن تشاركه في أجل المسائل، ولكن حكمتها كانت تأبى عليه أن تتصدى لكل أمر. فلم تكن تتوسط إلا في الأمور المهمة. وكانت تتكلم الفرنسية والانجليزية والإيطالية واليونانية والتركية، وتنتقل في أحاديثها من لغة إلى أخرى ببراعة لا تقل عن براعة قرينها. فكأنما خلقت له وخلق لها ."

إن نوبار الذي بين أيدينا، رجل يملك القدرة على الملاحظة والفرز الإنساني، يملك مواهب إدارية وسياسية مكنته من الصعود لقمة الهرم في مصر، إلى جانب وشائج القربى مع خاله بوغوض بك رجل الباشا الوفي، وأبيه وكيل الباشا في باريس قبل يتوفى، وأخيه، وحموه وكلها شبكات من العلاقات ميزت نوبار إلى اعتداد هائل بالنفس، ومهارة في إدراة البيروقراطية المصرية أثبتتها الأيام.. والملاحظ أنه دون عن نفسه التالي: "ذاعت شهرتي، كنت بالفعل رجلًا علامة مثقفًا. وكنتُ بحق الموظف المثالي في نظرهم. ويجب أن أقول أن الأتراك الذين أخذوا هذه الفكرة عني كانوا محقين تمامًا فيما يبدو. كنت حديث التخرج من الجامعة واتجهت بالفطرة إلى دراسة التاريخ وقرأت لفرنسوا جيزو (Francois Guizot) وأوجستين تيورى (Augustin Thierry) وكل الكتاب والمؤرخين المعروفين لدى الشباب فى تلك الفترة، مما مكنني من أن أكون على مستوى يسمح لي بأن أشرح لإبراهيم ما أسميه أنا بروح ومنطق التاريخ. وكانت أهم هذه الدراسات التاريخية التي نالت اهتمام إبراهيم بشكل رئيسي ذلك الجزء الخاص بكيفية استطاعة أوروبا الوصول إلى الوضع الذي هي عليه الآن ."

الباشا وإبراهيم.. تجليات التناقض

كان نوبار يعمل على تقديم بروفايل شبه مكتمل البنية والتفسير للشخصيات التي تعامل معها. وكأنه يعمل على بناء سردية محكمة، تلم بالشخصية ودواخلها ومداخلها النفسية والسيكولوجية واهتماماتها، وحتى تشنجاتها ورغباتها ونقائصها وتناقضاتها. وهكذا، نرى من تعامل معهم نوبار بمنظار سوناري كاشف للعوار الإنساني، لا فقط الذي يتبدى في أغلب المدونات التاريخية التي لاحقت هؤلاء الرجال، والتي كانت في أغلبها مستوعبة ضمن إطار نظرية الرجل العظيم الملهم في كتابة التاريخ، نوبار لم يتخلص تماما من هذه النظره، لكنه كان يرى هؤلاء بشرا لهم نقائصهم التي لا تقلل منهم، لكنها صفات أثرت في تاريخ بلد بأكمله، لذا كان من المنطقي العروج عليها. فنجده مثلا يتحدث عن إبراهيم: "قد رأيت إبراهيم قبل ذلك في حالة السكر وتحت تأثير الخمر ينغمس في الحديث عن المواقع الحربية التي خاضها.. لكن هذه المرة لم أر شيئًا يشبه ذلك. لقد اختفى الإنسان وحل محله الوحش الكاسر". إن القارئ هنا، يلمح لدى نوبار عين لاقطة لآثار السلطة ورموزها البراقة اللامعة، قبل أن ننتقل لدواخل القوالب الإنسانية. لا يمكنك أن تفهم هذا الخوف والإذعان من إبراهيم لأبيه، حتى بعد إدراكه أنه أصبح خرفا لا حول له ولا قوة، إلا وفق العلاقة المرضية مع الأب التي ظهر لها تفسير في الدوائر النفسية مؤخرا، والتي وجدت طريقا في القراءة النفسية للأدب على سبل المثال "معضلة الأب \ قتل الأب:".. فلم يكن إبراهيم يرى في نفسه إلا امتداد للباشا، في ذات الوقت كان إبراهيم طوال الوقت يحاول بناء طريقه الخاصة، الذي قد لا يتقاطع

مع الباشا إلا في الإطار الكبير مصر وملكيتها. والعوامل التي أدت إلى ذلك.

لم يكن إبراهيم ذلك القائد العسكري الرهيب، صاحب السطوة الهائلة والنفوذ، بل كان الأبن الخائف من غدر أبيه حينا، وهو ذاته الرجل الذي تلون الدماء أحلامه "إن الرجال الذين قتلهم يجيئون لإيقاظه من نومه ليلًا". إنها أفكار الإحساس بالذنب، يعود الماضي إليه في شكل كوابيس تؤرق نومه، وتصاحبه في حاضره. ونجده إنسانا يرى الجمال ويقدره "هذا الرجل الذي أشعل النار وسفك الدماء في المورة، يبكي عند رؤية الريف في ضواحي مدينة أجين. كان المشهد غير منتظر، وفيما يبدو أنه قرأ هذا الإحساس على وجهي فقال لي: لا انظر كم هي جميلة. وأكمل إني أبكي لأني أرى هذه البلاد تنعم بالرخاء بينما مصر تعاني من البوس على رغم أن أرضها أكثر خصوبة، سوف أغير كل ذلك إذا أمد الله في عمري". ثم يأتي تعليق نوبار اللاذع الكاشف؛ هذه كلمات جميلة وأحاسيس نبيلة ولكن يا حسرة! هل سيترك له جشعة وحبه في التملك الفرصة ليحقق نواياه؟

وعندما مات إبراهيم لم يفت نوبار إخبارنا عن كواليس نهاية حاكم مستند وبداية آخر، بما أن هذه تظل دوما من أسرار الدولة التي لا تخرج للعلن. "سرعان ما انتشر خبر موت إبراهيم. وكنت أظن أن كبار رجال الدولة سوف يهرعون ويتسابقون من أجل المجيء للعزاء، لكني يبدو أني أخطاتُ التقدير فلم يهرع أحد ولم يتسابق أحد للمجيء، بل لم يترعج أحد. صحيح ما الضرورة حتى يُزعجوا أنفسهم ويقطعوا نومهم؟ إن من كانوا يرهبونه لم يعد هنا. في الساعة السابعة صباحًا كامل باشا ثم شريف باشا وسامي باشا ودخلوا جميعا.. واكتظ الدور المسحور الكبير في القصر بكثير من الناس، ولكن ما كل علامات الرضا هذه التي كانت تكسو الوجوه؟ وما كل هذه الأحاديث التي انطلقت مرة واحدة وبصوت عال كما لو كنا في ميدان عام. من بقي من الجنازة ومن وصلوا إلى مدافن الأسرة فكانوا الفلاحين حاملي النعش على أكتافهم تتبعهم النادبات ووراءهم عربة داخلها نساء أسرة الوالي. كان مشهدًا قاتمًا وحزينًا تغلفه الوقاحة والانحطاط؛ لأن هذه كانت نهاية الرجل الذي أضاء اسمه الشرق وهز عرش السلطان محمود

يلتقط نوبار كثير من الشذرات من هنا وهناك، عن بينيات الحكم وكواليس إدراة ماكينة الدولة وصراعات ومخاوف الحكم، بما نفهم معه أن منظومات بلد بكامله كانت رهن اعتدال مزاج أو تعكير مزاج رأسها الأكبر "لا زلت أتساءل كيف لم يفرق إبراهيم بين يد أبيه الثقيلة الجاثمة على مصر، والثقيلة عليه هو شخصيا". وما بين الخنوع والانصياع، كان هذا هو ديدن ماكينة الإدارة المصرية "كانوا جميعا من حيث القدرة على اتخاذ المبادرة وقوة الشخصية أصفارًا وعاجزين تمامًا. لكن هل يمكن أن يكون الوضع غير ذلك؟ ففي خلال فترة عملهم الطويلة: هل كان لديهم فكرة واحدة عبروا بها عن شخصيتهم؟ ألم يظلوا دائمًا الأدوات القادرة فقط إلى حد ما على تنفيذ وأداء مهام الوظيفة؟ دائمًا منكسرين في يدي سيد كان يفكر ويتصرف بالنيابة عنهم؟". أيكتب نوبار هنا عن ماكينة الإدارة في القرن التاسع عشر؟! لوهلة ستفقد الإدراك الزمني، فما يقوله الرجل لا يزال صالحا لوصف حال بيئة الإدارة والفعل البيروقراطي حتى الآن، وربما حتى في المستقبل المنظور. وكان ما لفت نظر إبراهيم بنظر نوبار، في أوروبا أثناء زيارته لها، هي روح الانضباط واحترام القانون والسلطة وممثليها، لا المصانع والمتاحف وغيرها. ولكن نوبار يرد بأن الانضباط واحترام القانون، نابت من المعرفة لا تجهيل الجماهير. يكمل نوبار بالقول "تربى الإنسان الأوروبي على الأفكار الحديثة وامتلك المعارف التي يضعها التعليم في متناول الجميع، وكل هذا يؤدي إلى احترام القانون، وهو الأمر الذي يُشكل العظمة الحقيقية ."

عن محمد علي وإبراهيم، كتب نوبار في نوع من التقدير المثير للتفكير عن إيمان الرجل الحقيقي بقيمة الرجل العظيم وتأثيره في صناعة تاريخ مصر القرن التاسع عشر، والتأسيس لتجربة الحداثة بالأساس " لقد استدعيت ذكرياتي بخصوص هذا الموضوع ليس فقط بسبب سحر وتأثير هذه الشخصيات على لكنه بالأخص كي أوضح للقارئ أن البلاد التي حكمها محمد علي وابنه كان يجب أن

تتغير وتتبدل مرغمة ؛ لأنها تواصلت وتفاعلت مع قدرات ذكائهما الفذ حيث ترك كل منهما بصماته التي لن تنمحى آثارها في مصر، وفي كل مكان مرا عليه. الآن وبعد مرور فترة كبيرة على رحيلهما ما زالت شعوب الشام تدعو برغبتها في صلاتها لهذا الغازى القاسي ولهذا العادل الذي لا يرحم، والذي لفترة عشر سنوات متصلة أعطاهم الأمان والهدوء.

ويكمل نوبار: إنني عشت من الزمن ما يكفي كي أرى أن هذين العملاقين قد تم نسيانهما في مصر على يد جيل يكاد يكون جديداً". وهذا لا ينفي أن الباشا، كان لدى نوبار هو " قائدها المرسل لها من السماء، وليس لها من قبل ولا من بعد ."

وبين الفينة والأخرى، نجد نوبار يجنح لا لسرد بنية تأريخية لحدث بعينه، بل بنية نفسية صاحب الأمر سواء محمد علي أو إبراهيم، وقدرتهما على التعامل مع عمالهم وموظفيهم. ولهذا، يهتم نوبار بتتبع المزاج السياسي للباشا تجاه الدولة العثمانية، فلم يكن لدى محمد علي نية صادقة في التهام الفضاء العثماني بأكمله، بعد انتصاراته في الشام واقتراب قوات إبراهيم من الوصول إلى عاصمة الخلافة. كان الرجل كما ألمح نوبار بين أسطر كتاباته وتدويناته "عثماني الهوى"، وبالتالي لم يكن مقبولا لديه أن يكون هو تحديدا صاحب الرصاصة التي قد تفضي للإنهاء الجيوسياسي للكيان العثماني .

عباس الشكاك

كان المدخل الذي أراده نوبار للدخول لسرديته عنه، هي التيمات التقليدية التي لحقت بذكرى الرجل في الذهنية العامة، ألا وهي الشك، قبل أن يفندها ويدلف لتتبع سيرة مختلفة لعباس، تحاول أن تراه كإداري جيد يحاول الحفاظ على إمبراطورية جده التي أصابتها الضربات السياسية والعسكرية في شبه مقتل "كان عباس بطبيعته لا يثق بأحد، شكاكًا بطبعه.. ومن لم يكن هكذا ؟! ألم يكن إبراهيم على الشك دائمًا وأبدًا؟ ألم يظل محمد علي نفسه الذي سيطر على الجميع بذكائه أسير هذا الإحساس لآخر يوم في حياته؟ وهل كان يستطيع حتى وهو حالة نصف الجنون التي كانت تنتابه البقاء ولو للحظة دون سيفه وحاجبة؟! ألم يكن بناء على أوامره أنه في كل مرة يتم تقديم الماء والقهوة له تكون حركته الأولى الأولى هي إبعاد الكوب أو الفنجان، ثم يقول إنها غير نظيفة فيرد المملوك الذي تعود منه على هذا التصرف بالرد عليه بنفس الجملة دائمًا. وبالإضافة إلى هذا الاتجاه الفطري والطبيعي للشك كانت ميول عباس إلى التسلط عظيمة إلى أقصى حد، ولديه إحساس غريزي يلزمه بالارتباط برجاله المقربين الذين اعتبرهم كذلك من ذويه. هكذا يمكننا أن نتبين وبكل سهولة أن زمن استخدام العنف بشكل جلي وواضح قد ولى، لكن مع الأخذ في الحسبان رغبة عباس المطلقة في إبعاد رجال الحكم السابق عن البلاد مهما كان الثمن ."

أثناء زيارة عباس لعاصمة الخلافة للحصول على فرمان الولاية، نرى نوبار يعقد مقارنة لا مباشرة بين الرجلين، أقصد بين زيارة إبراهيم وعباس. في زيارة إبراهيم كانت الندية وربما الازدراء هي المشاعر المتحكمة في نفسية إبراهيم، فلم ينسى القوم أن إبراهيم كان وشك هضم قلب الدولة في الفضاء المصري، وآنف إبراهيم أن ينال السلطة من هؤلاء. هكذا كانت المشاعر؛ خوف وكراهية وازدراء. بينما عباس، يقول نوبار: "لم نكن نشعر مطلقًا بالخوف والقلق من الوزراء العثمانيين مثلما حدث من قبل، فقد عاملوا عباس كزميل لهم، له سلطة مهمة عظيمة، فكان من الضروري تبادل الود معه".

ويأخذنا نوبار لقراءة عباس من وجهة نظر جديدة ولها وجاهاتها، خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بأوروبا.. "اختلف الوالي الجديد عمن سبقوه في شخصيته وأفكاره. فمحمد على كان يحب أن يحيط نفسه بالقليل من الأوروبيين المقيمين في مصر أو الذين يفدون إليها زائرين، وكان هؤلاء يعملون كهمزة وصل بينه وبين أوروبا ويُعرفونه بها. لكن لم تكن لدى عباس الدوافع التي تحمله لمواصلة اتباع التقاليد التي كان يسير عليها كل من جده وإبراهيم الذين كان عليهما القيام بإصلاح البلاد وتأسيس دولة لها وضعها الاجتماعي وإخراجها من الظلمات إلى النور؛ لأنه على النقيض كان يرى بلداً أصبحت أهميتها السياسية والتجارية واقعًا ملموسًا.

وبعيداً عن طبيعته المتشككة وميوله النفسية التي كانت تدفعه للحياة في عزلة وسط القليل من رجاله، كان عباس يختار أناساً يشاركونه نفس الأفكار: إرادتهم هي إرادته، ويؤيدون نظريته التي تقول، إنه ليس من الضروري استمرار العلاقات مع الأجانب في مصر كما كان متبعاً في عهد محمد علي وإبراهيم، فكان عباس يرفض أي من الذين يتقدمون إليه، وكان يقول: «أنا لست تاجراً ولا شأن لي بهؤلاء السادة، فليتفرغوا لتجارتهم فإني لا أرجو منهم ما هو أفضل من ذلك . وإذا تعرضوا لأي عراقيل أو اضطهاد فأنا هنا لحمايتهم. وإذا كانوا يحتاجون لمساندة خاصة فليلتمسوا إذنا بالمقابلة في القصر وسوف أوافق على ذلك فقط إذا كانت الأسباب وجيهة. لا أريد أن يصبح الأمر كما كان فى عهد جدى أو كما تسير الآن في سراي سعيد. لا أريد أن يصبح قصرى كالمقهى أو مكانا للتجمع والحديث يجيء إليه كل من يريد؛ لأنهم لا يجدون ما يفعلونه ." »

كان عباس يريد أن يعامل كحاكم لأمره، مقدر ومحترم من هؤلاء الأوروبيون "وعلى الرغم من ذلك فإنه أصيب بالدهشة في أثناء زيارته الأخيرة لعاصمة الخلافة من الطريقة الأرستقراطية والمعاملة المهذبة التي عامله بها السفراء الأجانب. فقد كان عباس لا يجد هذه المعاملة المهذبة والأرستقراطية من قبل أفراد الهيئة القنصلية فباستثناء البعض كان معظم القنصليات ومفوضيها لا يتعاملون معه بالشكل اللائق. كان عباس يغضب بشدة من الحرية التي كان بعض القناصل يسمحون بها لأنفسهم للحضور إلى السراى في الساعة التي تناسبهم، فقال لي عباس ذات مرة: لقد رأيتُ في الاستانة الأوروبي على حقيقته، وكانوا سفراء بحق يسألونني من الساعة التي أستطيع مقابلتهم خلالها. كانوا يعلنون عن قدومهم ويأتون مرتدين الملابس الرسمية كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو المقامات الرفيعة، وأنا لا أقبل أن يكون الوضع أقل من هذا هنا في مصر» . بالفعل أتذكر أنه في يوم ما حضر السيد بينيدتي (Benedtti) إلى سراي الخرنفش بالقاهرة مرتديا اللباس المخصص لحجرة النوم الروب دى شومبر وتم إعلان حضوره على الوالي بهذه الملابس، بيد أن بينيدتي أصيب بالدهشة لمجرد أن المقابلة رفضت، وبعد أن سمع على لساني أنني قلت إنه في المستقبل إذا كان يرغب في رؤية الوالي فعليه أن يتقدم بطلب للمقابلة أولاً وأن يكون مرتديا الرداء نفسه الذى سيرتديه في فرنسا عندما يقابل وزيره ."

كان الرجل يتعامل بترفع وعزه مع هؤلاء الذين يظنون بأنفسهم قدراً من الأهمية. هو كان الحاكم، ولا أقل من بذل قدر معتبر من الاحترام والتبجيل الذي يستحقه الرجل لمكانته حاكما لهذه الولاية المهمة في بنية الدولة العثمانية. كان الرجل غير محبوب إذن من الأجانب هذا مستوعب تبعًا لما ذكر آنفا، لكن لماذا كان مكروها من هؤلاء الموظفين، لماذا؟ (لم تكن شعبية عباس كبيرة في أوساط الكبار والنبلاء والهيئات الوظيفية وفي أوساط الأوروبيين) أما لماذا كبار الموظفين؛ فقد قام عباس عقب عودته مباشرة من الاستانة بخطوة أدت إلى ابتعاد طبقة الموظفين عنه تماماً، عندما قام بسحب كل الأراضي التي كانت في حيازتهم فحرمهم من النفوذ الذي مارسوه على الناس .

وجه أخر يقدمه نوبار للحياة في البروج العالية في مصر القرن التاسع عشر، وزمن عباس على سبيل المثال.. "أمر عباس بطرد جميع السحرة والمنجمين من القاهرة والاسكدرية وكل أناحد البلاد، كما أمر بطرد كل العرافين الذين يطوفون ويقصون القصص الجميلة والأساطير المثيرة بين الناس وكانوا كثيرين في ذلك الحين، وازدادت أعدادهم اليوم وكثرت لأنه كان للمجهول والخيال دائمًا القدرة على إثارة الإنسان بوجه عام والرجل الشرقي بوجه خاص.. كانت شوارع القاهرة والإسكندرية تعج مثل هؤلاء الناس من ضاربي الودع والمنجمين الذين يحكون أسرار المستقبل بمساعدة الودع.. وكان بعض هؤلاء العرافين والمنجمين يعيشون في كنف كبار رجال الدولة، هذا النوع من الرجال الذين كانوا دائمًا يعانون من الأرق وغالبًا كانوا تحت تأثير قلة النوم والنعاس يلجئون إلى استشارة العرافين في الخفاء. غير أن عباس بعد هذه الوقائع استمر في الاستعانة بالتنجيم باقتناع تام".

كان عباس كما يراه نوبار الرجل الذي وصلت إليه السلطة

دون جهد منه، فقرر أن تكون له كما ينبغي "فكان دائمًا يجسد صورة السيد الكبير الأمير الشرقي، كان يعيش بحقّ في عزلة ووحدة يدبر كل شيء بمنتهى الاستبداد من داخل أعماق قصره، يطاع بشكل تام طاعة عمياء من الجميع. لكنه مع هذا لم يكن يشعر بالرغبة في الاستمتاع بالمباهج أو العيش في حياة الترف والبذخ سواء هو أو من حوله. وعلى الرغم من كل شيء كان سيداً عظيماً وكبيراً، وكان يحلو له أن يردد دائمًا أنا وزير ابن وزير وحفيد وزير؛ أنا لستُ تاجرًا مثل جدي وعمي، وإذا كان من واجبي حماية التجار فهذا لا يعني أنه من المفروض أن أقلدهم. حقيقي أن الشعب المصري عاش في ظل حكمه نظامًا مرعبًا لكنه لم يخضع يومًا للحاجة أو الابتزاز بسبب أي من الأمور الطارئة أو غير المتوقعة كما كان معتاداً عليها في أثناء ما كانت الحاجة الملحة للمال تدفع جده إلى اللجوء إلى هذا الأسلوب مصدرًا يحصل منه على المال. وعلى سبيل المثال، اقترح عليه ناظر المالية يومًا فرض ضريبة جديدة، فرد عليه قائلًا هل ميزانيتنا متوازنة؟ فرد عليه الناظر إن ميزانيتنا متوازنة، بل بها أيضًا فائض في الحسابات. فقال له عباس إذن ما الداعي لفرض مصاريف جديدة على الشعب؟! إن هذه جريمة وخطيئة، فاحترس لنفسك وانت تقترح مثل هذه الاقتراحات في المستقبل!".

كان عباس مثالًا على الحاكم الذي يصر أن يكون مالكا لكل المعلومات التي تجعل منه "كان عباس يعيش منطويًا داخل أعماق قصره، لكن يقظته ونشاطه لم يكونا أقل أي شخص آخر وامتدت إلى كل أنحاء البلاد. كان يعرف كل شيء وأي شيء من خلال الطرق السرية كما لو كان على اتصال مع كل الأطراف في مصر عن طريق خطوط تلغرافية غير مرئية. كانت يقظته ونشاط جده موجودة وتطبق بشكل مختلف وطريقه أخرى. وكان عباس كل عام يتجول في جزء من الدلتا يفتش بنفسه على كل شيء، يتفقد ويفحص جميع الناس راكبًا على ظهر دابة أو حصان يتبعه مماليكه وأعوانه، وكان يمر على كل القرى الفقيرة ويتوقف بها ليقيم مخيمًا فيها يصدر منه الأوامر، ويستقبل بداخله التظلمات التي يبعثها إليه أفقر الفقراء الذين تمتعوا بمطلق الحرية في تقديمها بأنفسهم. وكان الأمر نفسه ساريًا حتى في القاهرة عندما يكون في سرايته الريفية بشبرا أو في الإسكندرية عندما كان يذهب إلى حديقة رأس التين في فترة بعد الظهيرة، أو سراي محرم بك؛ كي يستريح، وكان الفلاحون يمرون من أمامه دون أي مضايقه يقدمون له الشكاوى حيث كان سكرتيرة يقرؤها عليه في الحال. وأيّا كانت الشكوى المقدمة كان يتم سؤال الشاكي عنها ويتم الحكم عليها من خلال أجوبته ما إذا كانت تستحق النظر فيها من عدمه وكانت الورقة تُرد إلى صاحبها إما ممزقة أو كما هي ليتم إعادة النظر فيها من جديد". الصورة التي يقدمها نوبار، صورة حاكم، ربما ليس مثالي، لكنه يملك رغبة ما في الاستماع لصوت الظلم، ويحاول ربما بإرادة سلطوية إزاحة قدر من الظلم الفردي من جانب أفراد من السلطة الذي وقع بورده على قطاعات من جماهيره، لكن بشكل فردي لا جماعي. "فقد كان يرى في رد المظالم والنظر فيها وسيلة للتوصل إلى معرفة الحقيقة ووسيلة للسيطرة على موظفيه وتجنب كل تعسف لا داعي له، من شأنه أن يمنع دون داع الفلاح من الإنتاج وتوفير الرخاء للدولة وله شخصيًا".

ما نراه في ملاحظات نوبار وتدويناته عن عباس، أن الرجل لم يكن استثناء، بل كان منتميًا لكل يميز الحاكم في بلد مثل مصر، حاكم فردي بالمعني التقليدي الحاكم الفرد في بلاد تعودت على الاستبداد وأوتوقراطية الفرد، لم يكن لعباس أن يشذ عن هذا التشكيل الاستبدادي. فوق هذا كان الرجل يملك فضيلة ما أنه يبرر هذا القدر العنف تجاه بعض الأفراد، بمصلحة الدولة والحكومة. "القرارات التي كان عباس قد اتخذها قد دفعتني إلى العودة للوراء، لأن ما حدث قبل عصره من أحداث تشابهت مع ما حدث فى عصره، فقد تشابهت الأحداث المتشابكة قبل عصره بتلك التي حدثت في عهده، فقد كانت الصلة بينهما وطيدة إلى حد أنني وجدت نفسي مرغماً على الدخول في بعض التفاصيل الطويلة التي لم أكن أتوقع أنها ستكون ضرورية.

وعلى أي حال فقد ازدادت المصاعب الداخلية على عباس وكانت نفسية، ولم تكن مادية على الإطلاق، فقد أدخل

قراره بسحب الإقطاعيات الرعب في قلوب الموظفين كما ذكرت من قبل وترك كثيرون البلاد في الساعات الأولى للقرار بينما لحق آخرون بهم للهروب من الملاحقات التي كانوا يتوقعونها . ومن بين هؤلاء ناظر سابق لجأ إلى التنكر حتى يتمكن من الفرار من البلاد، وتقريبا تجمع الجميع في القسطنطينية وبدءوا في تكوين حزب ضد الوالي الجديد. من ناحية أخرى، طالب أبناء محمد علي وعلي رأسهم سعيد بميراث والدهم متهمين «عباس» بأنه يمنعه عنهم من دون وجه حق. وذكروا أن والدهم قد ترك مجموعة من الألماس تعد جزءاً من ثروته الشخصية لم تكن ملكا للخزانة فطالبوا بها، كما اتهموا الحكومة أيضا بأنها استولت على أربعمائة ألف فدان من أملاك محمد علي الإقطاعية، وأصروا على تُسدد لهم قيمة المصاريف التي أنفقت على تحسينها وتجهيزها للزراعة كذلك قيمة الإنشاءات والزراعات والأشجار إلخ. كانت مطالب ورثة محمد علي قانونية، لكنها في بلاد كان سيد كل شيء فيها يمثل كل شيء، فكيف كان من الممكن تطبيق القانون بشكل لا يتم معه التفريق بين ما كان يخص هذا أو ذاك؟ وكما كان عباس يقول: بأي مال كان محمد علي قد أمر ببناء القصور التي يطالب بها أبناؤه؟ هل دفع ثمن الألماس الموجود الآن في الخزانة ؟ هل دفع ثمن المقتنيات التي في أبعادياته وضياعه؟ أليس ذلك كله من أموال الحكومة؟ وباختصار فقد كان عباس يرى أن ما يجب أن يكون هو عودة كل هذه الأشياء بعد وفاة الوالي الكبير إلى الحكومة والدولة.

ما كان يملك تفكير وتدبير نوبار في كل تدويناته اللاحقة، أنه في لحظات ولادة الفعل السياسي الذي أصبح تاريخا لحظة تدوينه إياه في مذكراته في تسعينيات القرن التاسع عشر، كان مهموما على الدوام باستجلاء وتدعيم سردية "الدولة القوية" التي يحتاجها البنيان المصري، والدولة القوية في احتياج لرجل قوي على الدوام، وتلك كانت من أسس تقيمه للأمور والرجال من محمد علي لإسماعيل، كان يزن كل ما حدث وما كان يمكن أن يحدث في هذا الميزان الذهبي من وجهة نظره "إن ضرورة وجود سلطة قوية من أجل ضمان التقدم في البلاد، وهي ضرورة لضمان الهدوء".

ولنعد إلى عباس، الذي كان ماكينة كراهية تسير بلا هدي ولا تدبير إلا من عقل جاهل يبغي القوة دون إدراك أسبابها، تلكم كانت بعض التوصيفات التي حاولت أن تستوعب فترة حكم عباس بين أهلتها الكثيرة. كان الرجل عنيفا قاسيا لا ريب، لكن هل كان فاقدا لأندى قدر من أبجديات الحاكم القوي "بمرور الوقت أصبح عباس أكثر غموضًا عما كان عليه من قبل، فامتد الصمت الذي يُخيم على قصره في العباسية إلى مصر كلها؛ كان الناس يتحدثون بصوت منخفض. عُملت إلى جانب هذا الحاكم المرعب إدارة منظمة واقتصاد صارم كفلت لمصر قوة اقتصاد مسحت بدفع رواتب الموظفين بشكل منتظم. وهو ما كان مفقوداً ولم نعرفه في عهد محمد علي حينما كانت مرتبات الموظفين في الحكومة تتأخر خمسة عشر أو عشرين شهراً. استطاع الشعب أيضًا أن يتنفس الصعداء في ظل إحساسه بوجود سلطة قوية، قادرة، غامضة وحريصة، تحرم نفسها من كل المباهج والملذات". في المقابل في علاقات عباس الدبلوماسية ومع ممثلي الدولي الأوروبية في مصر، كان الرجل حقيقة من خلال كتابات نوبار شديد الاعتزاز بنفسه وكونه حاكمًا لواحدة من أهم ولايات الدولة العثمانية ذات الخصوصية الشديدة في الفضاء العثماني كافة.

هكذا أغلق نوبار ستار زمن عباس بشكل فيه درجة عالية من محاولة إعطاء الرجل حقة المغبون فيه، كحاكم قوي.

"إن ذكريات عصر عباس دفعتني إلى أن أتخطى حدودي التي حددتها لنفسي؛ لأن حكمه كان مأساويًا، ولم يكن يمثل بالفعل واحدة من الخطوات الرئيسية في تاريخ البلاد، وتحول مصر فحسب، وإنما عرف أيضًا بشكل سيئ أو ضئيل. وفُهمت شخصية عباس بشكل خاطئ لدى الأجيال الحالية.

لقد تخلى التاريخ عن عباس تاركًا في الظل الحديث عن قدراته ومميزاته الرفيعة كإداري له مبادئ

ونظام في الحكم والاقتصاد التي في النهاية كان يجب أن تكون هي الضوء الذي كان يجب أن يسلط من أجل فهم جوانب شخصيته كإنسان، لكن لم ير من عباس سوى هذا الشخص المنطوي المنعزل في قصره سواء بالعباسية أو بنها منغلقا وسط حراسة مماليكه كما كان لويس الحادي عشر يفعل في قصره الريفي بلسيس لى تور-Plessis - Les-Tours تحت حراسة جنوده الأشداء الذين جلبهم من جزيرة كورسيكا. ونسي الناس أن عهده كان أكثر العهود أمانًا في مصر، ولم يكن هناك وال في مثل حكمته وقدرته على إدارة الاقتصاد وموارد الخزانة والدولة وحرصه على مصالح البلاد. لقد كان عباس بحق يمثل آخر الولاة حسب مفهوم السلطة المطلقة المطبقة من أجل المصالح التي مثلها محمد علي وسيظل يمثلها إلى الأبد ."

المظهر وصناعة مصر جديدة

مع انتقال عباس للعالم الأخر، يدون نوبار هذه الملاحظة المثيرة. "لقد فقدت البلاد شخصيتها الشرقية، وكان لابد من حدوث هذه الفوضى حتى تتربع أوروبا على حكم مصر". لكن لماذا يأخذ نوبار يعدد ويحدد ويؤصل للتغيرات العميقة التي بدأت تأخذ البيئة المصرية وتعيد هندسة الفضاء المصري بكامله لتجعله فضاءً كوزموبوليتانيا بحق، والبداية كانت لدى سعيد. " كانت مهمتي سهلة نسبيا عندما كنتُ أخط انطباعاتي عن زمن الولاة الأوائل لأن عملهم القوي والذكي لتطوير مصر تمت إدارته بالفعل بطريقة متطورة ومستمرة، لكن كل شيء اتخذ شكلاً جديداً منذ الأيام الأولى لتولى سعيد الحكم، كل شيء سار سريعاً وبشكل مفاجئ وكأننا نجلس في مسرح نشاهد مشهدا يتغير داخل رواية خيالية. كان الولاة يستلهمون ما هو مفيد من العنصر الأوروبي ولكنهم في الوقت نفسه سيطروا عليه وأخضعوه لإرادتهم وظل الوالي هو السيد المطاع .لكن مع مرور الوقت غزت أوروبا مصر، وكان هذا الغزو يستمد قوته أحيانًا من أذناب الحاشية الملتفة حول أمير شاب مفتون بالسلطة عاطفي غير مدرك، ولا يعي أن هذه الحاشية تدفعه وتسيره وتسيطر عليه، وقد اعتقد في البداية أنه هو الذي يقودها ويسيطر عليها . وهكذا بدأت فصول الرواية الفوضوية أولاً في بلاط الوالي، ثم امتدت بقوة إلى إدارات الحكومة حتى وصلت بشكل أقل قوة لتنتشر بين صفوف الشعب. ومن الصعب أن أصف مدى ما حدث من تضارب في الأفكار نتيجة هذه الفوضى، لكنني ربما أستطيع أن أبين لكم الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع الذي كان أساسه شخصية الوالي الجديد وإن لم يكن هذا هو السبب الوحيد، لكنه كان شديد السطحية ويفتقر تماما إلى احترام الذات كليا محبا للمظاهر البراقة ."

ثم هل كانت مصر في حاجه إلى هذه الطريقة من أجل التحدث عن نفسها؟ ألم تكن مصر تعلن عن وجودها عبر القنوات الدبلوماسية والسياسية؟ ينتقل نوبار من سرديات تفكيك بناءات ماكينة الدولة، لصالح ما يمكن توصيفه لذكر أدبيات الاستمتاع بالملك وبهرجته. "رأيتُ تدريبات القوات في أثناء تجوالي في المعسكر، ويبدو باختصار أن الحال كان هو نفسه كل يوم وطوال النهار، ووقفت مذهولًا أمام كل ما رأيت. هل كان هذا هو فعلًا الجيش المصري الذي عرفته مرتديًا فقط رداءً أبيض، وطربوشًا أحمر يقوده ضباط أتراك بروح المقاتل؟ الآن هم جنود شباب يرتدون أزياء مختلفة تعكس بريقًا من الانبهار والوجاهة، صنعت الملابس من الأقمشة رفيعة المستوى تم تصميم تفصيلاتها في منتهى البراعة.. كانت سترات الضباط مزركشة بالذهب والزرائر المذهبة أو المصنوعة من الفضة.. رأيت الضباط بعد بضعة أيام مجتمعين من أجل مراجعة استعراض عسكري، كانت هذه الأزياء المختلفة كل منها أفخم من الأخرى، تمثل منظراً خلاباً ورائعًا، لكني لم أستطع أن أمنع نفسي في التفكير في المبالغ الطائلة التي تكلفها مثل هذا الترف بسبب اعتيادي على الاقتصاد في عهد الحكام السابقين. في ذلك الوقت استطعت تكوين فكرة عامة عن كيفية سير الأعمال وتكوين شخصية الوالي، فلم يكن يهتم بالإدارة، ولم يكن في ذهنه سوى جيشه الذي استرعى كل اهتمامه، في حين سارت الإدارة بقوة الدفع التي أعطاها إياها الولاة السابقون".

أعطت خصال سعيد الشخصية شيئا من الحراك وقدر من التنفس للفضاء المصري، فكيف ذلك.

"الذي جعل كل عبء في عهد سعيد خفيفًا كان بسبب شخصيته وطبيعته وعدم اكتراثه بالأعمال الحكومية التي كانت تُسبب له الضيق، وكان يقول عنها دائمًا أنها أعمال تصلح للمدنيين، أما بالنسبة له فكانت العسكرية وكل ما يتعلق بالجندية هي وحدها الأمور الجديرة وتستحق أن تثير الانتباه. لذلك لم يكن سعيد يتدخل أبداً في أي من التفاصيل اليومية للإدارة، وحذا المديرون طبعًا حذوه ولم يتدخلوا في أعمال المشايخ أو الناس". هذا الانشغال عن الجهاز البيروقراطي عصب المجتمع المصري حينذاك وحتى الآن، أفضى لمساحة للحركة لم تختنق تماما بانتهاء حكم سعيد، بل أخذت قدراً مضاعفًا من الوهج أثناء حكم إسماعيل، لمتغيرات كثيرة .

ولكن رغم هذا "ولولا حياة الجندية التي تبناها سعيد، بل وأسرف فيها في بدايات حكمه، لولا السخرة التي كانت نتيجة لتروة دفعته إلى اتخاذ قرار بتسوية قطع كبيرة من الأرض تصل في ارتفاعها إلى درجة ارتفاع التل لتشييد سراية له في إقليم فقط، ولولا إرسال آلاف من الرجال إلى القناطر من أجل تأسيس مركز القيادة الجيش هناك، ولولا موافقته على إدخال السخرة من أجل مشروع قناة السويس نتيجة سوء الحسابات وضعفها أقول: إنه لولاها ولولا كل هذا العدد الهائل من الرجال الذين استخدموا من أجل المشروع لم أكن سأعرف أيا من الشعوب الأوروبية الكبيرة كان يمكن أن تعتبر نفسها أنها تعيش في مثل هذا الهدوء والسعادة التي كان يعيش فيها الشعب المصري. إنني لا أبالغ في شيء إن قلتُ إننى سمعتُ أيضًا في كل مكان هذا القول يتردد على لسان الأوروبيين الذين يعيشون فى مصر، ومن الأتراك وحتى من المصريين أنفسهم وحتى في بعض مراكز تشريع القوانين في أوروبا: «أن إدارة مصر تحتاج إلى يد من الحديد المسلح. لكن التجربة التي طبقت في عهد سعيد ألم تكن دليلاً حياً يثبت أن العكس هو الصحيح؛ إذ كان التقليل من حدة السيطرة الإدارية وتحكم الحكومة يزيد الشعب رخاء ويصبح أكثر ثراء وتقدما ونماء".

والخلاصة هنا كما يدون نوبار "إن عدم اكتراث واستهتار سعيد وتعامله بهذا الشكل مع الأمور الإدارية كان له كل التأثير الإيجابي في نظر العامة والرأي العام كما أن الأمر كان هو نفسه بالنسبة للعلاقات مع الأوروبيين الذين أرادوا توسيع أعمالهم التجارية التي أصبحت في زيادة يومًا بعد يوم وساهمت في تنمية العلاقات المصرية الأوروبية". أي أن ضعف الرجل وعدم اكتراثه لكثير من بينيات الآلة الإدارية أعطى متنفسا حقيقيا لقطاع من المجتمع، لكن من زاوية أخرى أضر بمستقبل البلد ككل؛ حينما ساهمت ليونته وعدم اكتراثه في تضخم المصالح المصرية الأوروبية لصالح الطرف الأبيض، فتفتحت الأعين على مكاسب جمة يمكن أن تنال ممن يملك البلد دون يدير ما يملك يقدر من الحكمة والتبصر بالمطامع. لكن كما يقول نوبار لم يكن سعيد من أحد النواحي إلا طفلًا كبيرا، أراد في جزء كبير من سياساته الكارثية أن يفارق عباس ويتمايز عنه، وهنا كان مبدأ الزلل ومفتتح الكوارث الكبرى التي أودت بمصر في براثن اللئام البيض. "مسكين سعيد؛ لولا المكابرة وافتقاده للحكمة، ولولا استدراجه إلى تغيير كل شيء والسير عكس الطريق الذي كان يسير فيه عباس ولو كان بكل ما أوتي من روح ونبل وتسامح قد احترم نفسه قليلاً، لكانت فترة حكمه ستكون في كل الأحوال خصبة لمصر تماما مثل خصوبة طمي النيل المبارك. لكنني وأنا أكتب هذه السطور أرى أمامي نهايته البائسة وقلبي يعتصر ألمًا لهذه الذكرى ."

من كان يملك ضعفًا طبيعيا أمام الأجانب والأوربيين هو سعيد بالأساس قبل أن يكون إسماعيل (الذي كان مفتونا بالنموذج بالأساس كما سنرى بعد قليل). كان سعيد كغيره من حكام مصر على مدى تاريخها الألفي مهجوسًا بالتاريخ، ومدى نصاعة صورته أمام الأجيال القادمة، دونما انشغال بالآن بالقدر الكافي، وفي العادة الحكام الذين ينشغلون بالمستقبل بهذا القدر يكمن إنجازهم الحقيقي في هذا. "كان لدى سعيد إيقان بأن التاريخ لابد أن يتحدث عنه. وقد لاحق سعيد هذا القلق من التاريخ لمدة طويلة وربما كان يرمي بنفسه في المستقبل ليهرب من الحاضر".

ومع مقدم إسماعيل ليلي الأريكة الخديوية، كان التحول نحو مظهر جديد لمصر في طريقه للاكتمال، مظهر يعني بالشكل الملوكي أكثر فأكثر ولو كان هشًا، أكثر كثيراً من

البنية الداخلية القوية. "وهذه التفاصيل لها أهميتها لمعرفة من الذى فى النهاية كان سببا في تحول مصر، هل هي تصرفات محمد على وطريقته في التفكير هما اللتان جلبتا على مصر هذا الخلط في الأفكار ووضعتنا في موقف نعاني الآن من أجل الخروج منه؟ أم شخصية سعيد وأسلوبه هما اللذان قلبا الأوضاع فى مصر رأسًا على عقب؟ أم شخصية إسماعيل ونهجه في الإدارة؟ إن هذه التفاصيل الصغيرة والأحداث التي بالنسبة لكثيرين تُعَدُّ لا أهمية لها مثلت بالنسبة لى المؤشر الذي يمزج بين الرجال وشخصياتهم وتساعد على فهم تكوينهم. لذا فإن مثل هذه الأحداث ظلت محفورة في ذاكرتي بشكل أعمق من غيرها التي من الممكن أن تمثل أهمية أكبر نسبياً". كان إسماعيل مشغولًا بتحقق قدرا بازغا من الشكل الملوكي للإدارة المصرية، ومنذ الوهلة الأولى لحكمه؛ ففي اليوم التالي لولايته أرسل في طلب نوبار لإعداد خطبة قصيرة ليتلوها أمام الهيئة الدبلوماسية.. ولم يكن هذا التقليد معتادا في بلاط الحكم قبل ذلك أو كما يقول نوبار "لم يكن هذا أبدًا من تقاليدنا ولا عاداتنا. كان القناصل حتى في عهد سعيد لا تتم دعوتهم في شكل هيئة، بل كان كل قنصل يذهب إلى القصر بصفته الشخصية من أجل تقديم التهنئة للوالي. ويبدو أن الأبهة وتقاليد المراسم المتبعة فى قصور أوروبا استهوت إسماعيل. ولم يكن يعرف إلا أن فى مثل هذه المناسبات كان حكام أوروبا يلقون بكلمة أمام الهيئات القنصلية وكان يريد أن يلقى هو أيضاً خطبة خاصة به ".

ويلخص نوبار الصورة بهذه الجملة البليغة "كنا على وشك الدخول إلى عصر جديد من أشكال الحكومة".. كان لدى إسماعيل حلم إمبراطوري، لكنه كان حلما بدون أسس متينة كما بات معروفا لنا الآن. كان من اللحظات الأولى يرى مصر صغيرة جدا عليه، وتلك كانت مأساته ربما؛ إذ كان حلمه أثقل وأوسع ربما من قدرات مصر على الاحتمال. كانت السلطة التي أرادها إسماعيل سلطة مطلقة لكن بمظهر براق ذو طابع أوروبي شكلا لا جوهرا. وتلك كانت الثغرة التي نفذ منها نوبار لإقناع كل من إسماعيل والباب العالي في الدولة العثمانية وأوروبا بضرورة وجود سياق قانوني وسياسي سيسمى ب"المحاكم المختلطة"، وظيفتها حماية مصالح الجميع، لكنها من وجهة نظر نوبار من أجل الدولة المصرية بالأساس. "إن تشكيل محكمة يجلس فيها إلى جانب القضاة المصريين القاضي الأجنبي المعين والمعتمد في أوروبا؛ كانت كل هذه الأفكار مع التي اتخذت أشكالاً كثيرة الهدف منها واحد وهو تصحيح أوضاع علاقتنا الأوروبيين لكن من أجل إخضاع الأوروبي لهذه المحكمة يجب أن يخضع إليها أولاً "سموكم". هذا ما كنت قد قلته للوالي. ودون أي نوع من التحضير. أليس خضوع الوالي إلى القانون الذي تطبقه محكمة مستقلة هو تعديل وتحديد لسلطاته التي لم يكن لها حدود؟ ألن تُصبح أخيراً هي السلطة المطلقة التي تتحكم فيلها العدالة؟ إن المحاكم التي ستؤسس كانت ماثلة أمامي بشكل واضح؛ أخيرا إنها العدالة والأداة التي ستوصلنا إلى هدف مزدوج هو إنقاذ البلاد وحمايتها من القضايا القنصلية، وفي الوقت نفسه حمايتها من نزوات وحكم السلطة المطلقة للوالي لأن في اعتقادي أنه إذا تقبل الوالي الخضوع للقانون مثله مثل الأوروبيين فستكون النتيجة الطبيعية هي أنه سيكون مجبراً على قبولها أمام الأهالي، وفي ظل هذه الشروط سيجد الوطني الذى كان محروما منذ آلاف السنين من كل الحقوق نفسه مرة واحدة وقد ارتفع إلى مستوى الأوروبي وسيتمتع بنفس المميزات ونفس الأمن والأمان".

كانت الرؤية لدى نوبار أن إيجاد نوع حديث التقاضي وصيغة حداثية من تطبيق القانون، كفيلة بوضع مصر في مكان ممتاز في علاقاتها بأوروبا والدولة العثمانية صاحبة السيادة "وأنتقل من هذا الترتيب الفكري إلى آخر؛ كنتُ أرى أنه وبفضل الأمان الذي سيسود سيسعى الأوروبي الجاد إلى الاستقرار وإنشاء المؤسسات والشركات في البلاد، وسيساعد ذلك على تغيير الأفكار الاقتصادية وجلب أساليب متقنة للعمل، وبذلك سيحل بشكل تلقائى نظام العمل مدفوع الأجر محلّ العمل بالسخرة، وفي ظل هذه المعطيات الجديدة. لم أكن أرى أي حدود للرخاء الذي كان من الممكن أن تكون عليه مصر.. أما بالنسبة للاستقلال الذي كان يمس قلبي كما كان يمس قلب الوالي فلم أكن أره في شكل الانفصال عن الاستانة وإنما كنتُ أراه فى صورة مصر منظمة تدار بعدالة بحيث تجد كل مصالح الشعب نفسها مثلها مثل مصالح الأوروبيين وتتوافر الأرض التي تنمو وتتطور عليها في حرية وأمان. كنتُ أقول لنفسي إن مصر ستصبح تلقائيا حرة ومستقلة يوم أن يجد كل أوروبي فى مصر مصالحه مؤمنا عليها أكثر مما هي في بلده الأصلي. عندئذ ستصبح أوروبا دائما بيننا وبين الباب العالي في حالة ما إذا كانت الأخيرة تريد عن طريق أحداث من المستحيل أن تتمكن من افتعالها أو بالأحرى من تدبيرها أن تقيدنا بروابط أكثر صرامة أو قيود أقوى من تلك التي في الفرمان".



حكاية نوبار باشا الأرمنى والاقتصاد المصرى ١٨٢٥ – ١٨٩٩ م



بقلم: د. سحر حسن

لقد حبي الله - عز وجل - مصر بتميزها عن سائر ممالك الأرض بالعديد من الصفات والمميزات، فقد حباها بموقعها الجغرافى، كما وصفها جمال حمدان فى كتابه "شخصية مصر" بـ "عبقرية الزمان والمكان". وليس هذا فقط بل ميزها الله أيضاً بكونها الأرض التى عاش عليها الكثير الأنبياء والرُسُل. ليس هذا فحسب، فقد ميزها الله أيضاً بتوافد العديد من الجنسيات المختلفة إليها فانصهروا فى بوتقتها واختلطوا مع شعبها، وتكيفوا معه وعاشوا على أرض مصر - أرض الكنانة - كأبنائها ولم يشعروا يوماً بالتميز والاختلاف وتمتعوا بمزايا الشعب المصرى. ومن ثَّم، نجد أن منهم من خدم فى الجهاز الإدارى والحكومى للدولة المصرية على مر العصور.

ففي قلب مصر، حيث تلتقي ضفاف النيل بجمال التاريخ وثراء الحضارات، تتجسد قصة فريدة من نوعها؛ قصة انصهار الجاليات الأجنبية في بوتقة الشعب المصري. مصر، تلك الأرض التي شهدت مرور العديد من الشعوب، كانت دوماً مرآةً عاكسة للتنوع، حيث تداخلت ثقافات وآراء وألوان بشريّة مختلفة لتُصبح جزءاً من نسيجها الاجتماعي المتماسك. في شوارعها، أسواقها، وأحيائها، اختلطت اللغات وتمازجت العادات، فكان من الطبيعي أن تُصبح هذه الأرض ملاذاً لكل من يحمل حلماً أو طموحاً، من أرمن ويونانيين، إيطاليين وفرنسيين، وإنجليز وروس وشوام، وغيرهم من الجاليات التي قدمت إليها بحثاً عن حياة جديدة أو هرباً من ويلات الحروب والمحن.

وأهم ما يُميز مصر هو قدرتها العجيبة على احتضان كل من يأتى إليها، وعلى تحويل هذا التنوع إلى قوة دافعة، تمدُّ جذورها في عمق التاريخ وتثمر على مرّ العصور. لم يكن التعايش هنا مجرد ظاهرة عابرة، بل كان انصهاراً حقيقياً؛ فاختلطت الأديان والثقافات، وتناقل الناس من مختلف الجنسيات عاداتهم وأفكارهم، ليصهرهم النيل معاً في بوتقة واحدة، ويجعلهم جزءاً لا يتجزأ من هويتها المصرية الأصيلة. لم يكن هذا التنوع سبباً للفرقة، بل كان هو القوة التي جعلت من مصر نموذجاً فريداً في التعايش والانسجام بين الشعوب، في لوحة إنسانية تنبض بالألوان والتفاصيل التي تروي حكاية مكانٍ لا يعرف حدوداً إلا تلك التي يُحددها حلم مشترك. ففي منتصف القرن التاسع عشر، وفي زمن كان فيه الشرق العربي يمر بتغيرات كبرى، برز اسم نوبار باشا (١٨٢٥ – ١٨٩٩ م) الرجل الذي لم يكن مجرد خادم للأمة بل كان رائداً في مسار اقتصادي جديد لمصر. وُلد نوبار باشا في قلب مملكة تذوق طعم التحولات السياسية والاجتماعية، فكان أحد المهندسين الرئيسيين لإعادة صياغة مشهد الاقتصاد المصري في فترة حكم الخديوي إسماعيل (١٨٣٠ - ١٨٩٥ م).



لم يكن هذا الرجل، ذو الأصول الأرمنية، مجرد إداري عادي، بل كان ذا رؤية استراتيجية تسعى لتحقيق التوازن بين الطموح المحلي والضغوط الخارجية.

وعند الحديث عن نوبار باشا الرجل الأرمنى الأصل المصرى الانتماء والهوى الذى لُقب " بأبو الفلاح المصرى" ، يُعد أول مسيحيى يحصل على لقب باشا ، وهو أيضاً أول رئيس وزراء لمصر . وهو من رفض فكرة مشروع قناة السويس وكان يرى فيه أنه سيكون سبباً لاحتلال مصر فيما بعد . ولكن هناك بعض الأسئلة التى تطرح نفسها هنا وبقوة منها : من هو نوبار ومن أين وكيف أتى إلى مصر ؟ كيف أصبح أباً للفلاح المصري وهو أرمنى الأصل ؟ وكيف أصبح أول رئيس وزراء لمصر ؟ وما الدور الذى لعبه فى الاقتصاد المصرى ؟

وُلد نوبار باشا بمدينة أزمير بتركيا عام ١٨٢٥م، وتلقى تعليمه في مدارس سويسرا ثم فرنسا، والتحق بمعهد سويزير فى عام ١٩٣٦م، وكان يتقن العديد من اللغات ، وبعد أن أنهى دراسته وجاء إلى مصر بناءً على دعوة من خاله بوغوص بك يوسفيان – ناظر (١٧٧٥ - ١٨٤٤م) " وزير" التجارة والأمور الإفرنجية فى عهد محمد علي باشا (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) -الذى حبَّب إليه الإقامة فيها . وعقب وصوله إلى مصر تم تعيِّنه سكرتيراً للأمور الأجنبية ، ثم صار فى عام ١٨٤٤م سكرتيراً ثانيًا ومترجمًا فى مجلس الباشا ، ثم رُوقى إلى رتبة سكرتير أول ومترجم لإبراهيم باشا(١٧٨٩ - ١٨٤٨م) . وبالرغم من قصر المدة التي قضاها نوبار مع محمد علي وابنه إبراهيم باشا ، فإنه استطاع أن يلتقط خيوط الشخصيتين ، وكان شديد الإعجاب بالإبن خصوصاً في مسألة تحضره بشأن معاملة المسيحيين .

وفى عهد عباس باشا الأول(١٨٤٩ - ١٩٥٤ م) ، ذهب نوبار إلى إنجلترا عام ١٨٥٠م لتسوية حقوق ورثة العرش ، وقام الوالى بعد ذلك بتعينه مترجماً له فى عام ١٨٥١م . ثم عينه سعيد باشا (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) سكرتيراً له عام ١٨٥٤ م، وتولى فى عهده تنظيم المرور بين القاهرة والسويس ، وفى عام ١٨٥٦ م عُين بمجلس القومسيون والياوران، وفى الفترة من ١٨٥٧ م إلى ١٨٥٩ م أصبح مديراً لمصلحة السكك الحديدية . ومع تولى إسماعيل باشا سُدة الحكم صار أيضاً مترجماً له وتولى منصب ناظر الخارجية فيما بين عامى ١٨٦٦م إلى ١٨٧٤م، وكذلك المالية ثم التجارة ١٨٧٥ م، ولما حدث خلاف بين الخديو إسماعيل وبينه غادر مصر .

وفى تلك الأثناء تم ترشيحه كحاكم عام لبلغاريا إلا أن اندلاع الحرب الروسية العثمانية عامذاك حال دون ذلك .

ومن الجدير بالذكر أن نوبار باشا شغل منصب رئاسة النظارة المصرية لثلاث فترات ، كانت أولها فى الفترة من ٢٨ أغسطس ١٨٧٨م إلى ٢٣ فبراير ١٨٧٩ م، وقد سُميت بالنظارة الأوربية لوجود وزيرين أوربين بها ، وثاني نظارة كانت من ١٠ يناير ١٨٨٤ م إلى ٧ يونية ١٨٨٨ م، أما الثالثة والأخيرة فجاءت من ١٦ أبريل ١٨٩٤ م إلى نوفمبر ١٨٩٥ م .

لقد أُوكل إلى نوبار باشا أمر إدارة البلاد في فترة كانت تتلمس طريقها نحو الحداثة، وكانت تداعيات الأزمة المالية تتهددها. فكان دوره في إعادة هيكلة الديون، وإصلاح النظام الإداري، وتنمية البنية التحتية، بمثابة أبعاد جديدة لمفهوم الاقتصاد المصري. غير أن الإصلاحات التي أرسى قواعدها، سواء في الزراعة أو التجارة أو الصناعة، لم تكن خالية من التحديات، إذ تَداخلت فيها المصالح المحلية مع الضغوط الأجنبية. في هذا السياق، يُمكننا أن نقول إن نوبار باشا كان أحد الأسماء التي خاضت معركة صعبة لبلوغ التوازن بين الأمل في النهضة والمصاعب التي لا تكاد تُرى إلا في تلال من الديون والمصالح الأجنبية.

كانت مسيرته مع الاقتصاد المصري مليئة بالتناقضات، ولكنها بلاشك تُمثل محطة فارقة في تاريخ البلاد الحديث ، حيث ترك بصمة واضحة على حركة الاقتصاد المصري في عصر كانت فيه الدولة تسعى لفرض سيادتها في ظل محيط استعماري معقد .

لا غرو أن كان نوبار باشا قاسماً مشتركاً في المشروعات الكبيرة التى نُفذت في مصر على مر العهود التى عاصرها من قبيل: مشروع السكك الحديدية ، الذي أيد وشجع عباس الأول على قبوله ، وعُهد إليه بإنشاء مصلحة تتولى شئون البضائع الصادرة إلى الهند فقام بتلك المهمة قياماً دل على مدى ذكائه وحكمته.

مشروع إنشاء السكك الحديدية

تُعد مشروعات السكك الحديدية في مصر من أبرز الإنجازات التي شهدتها البلاد في القرن التاسع عشر، وكان لنوبار باشا دور كبير في تنفيذ هذا المشروع الطموح. بدأ التفكير في إنشاء السكك الحديدية في مصر في فترة حكم الوالى عباس الأول (١٨٤٩ -١٨٥٤م) ثم استُكمل فى عهد الخديو إسماعيل باشا (١٨٦٣ -١٨٧٩م)، الذي كان يسعى لتحديث البلاد وتحقيق التنمية الاقتصادية. وكان لنوبار باشا دوراً محورياً في تسريع تنفيذ هذه المشروعات.

بيد أن نوبار باشا كان يرى أن مشروع إنشاء السكك الحديدية هو حجر الزاوية لتطوير مصر وتسهيل الاتصال بين مختلف أقطار البلاد، وكذلك مع العالم الخارجي. ولذلك، عمل على تنفيذ مشروع بناء شبكة قوية من السكك الحديدية بشكل سليم، حيث بدأ بتأسيس أول خط سكة حديد يربط بين القاهرة والإسكندرية عام ١٨٥٤م وتم تسير أول قاطرة علية وأكتمل هذا الخط فى عام ١٨٥٦م، وكان هذا الخط هو الأول من نوعه في مصر، ليُصبح حجر الأساس لبقية شبكة السكك الحديدية التي تم تأسيسها لاحقًا. إلى جانب ذلك، كان نوبار باشا حريصًا على استقطاب الشركات الأوروبية المتخصصة في هذا المجال لتنفيذ هذه المشاريع، بما في ذلك شركات إنجليزية وفرنسية، وقد عمل على ضمان الاستثمارات الكبيرة من أجل توفير الأموال اللازمة لتنفيذ المشروع. وقد أسهمت هذه الشبكة في تسهيل حركة النقل بين مختلف المدن المصرية، مما عزز التجارة والاقتصاد الوطني.

كما لعبت السكك الحديدية دوراً رئيسياً في تعزيز التكامل بين مختلف أنحاء البلاد، وتسهيل نقل البضائع والركاب، وبالتالي أسهمت في تحسين الوضع الاقتصادي والاجتماعي في مصر. وكان لهذا المشروع دور كبير في تعزيز مكانة مصر كدولة حديثة تسعى لتطوير بنيتها التحتية في مجالات النقل.

إجمالاً، فإن مشروع السكك الحديدية في مصر يُعد من أبرز الإنجازات التي سعى نوبار باشا لتنفيذها، وقد كان لهذا المشروع تأثير طويل الأمد على الاقتصاد المصري.

نوبار باشا ومشروع قناة السويس

لم يكن نوبار باشا من مؤيدي مشروع امتياز قناة السويس، حيث أبدى تحفظًا واضحًا تجاه المشروع نفسه وتجاه الشخصيات الرئيسية المسؤولة عنه، وعلى رأسهم الفرنسي فرديناند ديليسبس (١٨٠٥ -١٨٩٤م). كان موقفه نابعًا من رؤيته الوطنية وحرصه على مصالح مصر؛ إذ اعتبر أن المشروع يحمل في طياته شروطًا غير عادلة قد تضر بسيادة البلاد ومصالحها الاقتصادية. إضافة إلى ذلك، أظهر نوبار باشا معارضة قوية لسياسة الاستدانة واللجوء إلى القروض الأجنبية، التي كانت الحكومة المصرية تعتمد عليها بشكل متزايد، لما لها من آثار سلبية على استقلالية القرار الوطني.

كانت ثقة الخديوي إسماعيل باشا بنوبار باشا كبيرة للغاية، حيث اعتمد عليه في المهام الحساسة التي تتطلب حكمة ودراية. وفي عام ١٨٦٤م، أوفده إسماعيل باشا ليتولى التفاوض مع شركة قناة السويس بعد أن نشب خلاف بين الحكومة المصرية والشركة بشأن بعض بنود الاتفاقية. تمكن نوبار باشا من إدارة المفاوضات بمهارة فائقة، حيث نجح في التوصل إلى تسوية مُرضية للطرفين، حيث تم تعديل بعض الشروط التي كانت مجحفة لمصر، مما أسهم في تقليل الضرر الواقع على الدولة من المشروع. وهذا عكس قدراته الدبلوماسية العالية وحرصه على تقليل الأضرار الواقعة على مصر بسبب الاتفاقية.

هذا الدور البارز عزز من مكانة نوبار باشا كإداري وسياسي حكيم، قادر على التعامل مع القضايا الشائكة بما يحقق التوازن بين متطلبات التنمية وحماية المصالح الوطنية.



نوبار وفرمان ١٨٦٧م

وقد قام نوبار باشا بلعب دورًا محوريًا في المفاوضات التي جرت بين الدولة العثمانية وإسماعيل باشا والى مصر بشأن تعديل نظام وراثة الحكم في مصر. كان النظام القائم حينها يقضي بأن يكون الحكم محصورًا في أكبر أعضاء الأسرة العلوية سنًا، وهو ما لم يكن ينسجم مع تطلعات إسماعيل باشا، الذي أراد أن يتم حصر الوراثة في نسله لضمان استمرارية حكمه داخل عائلته المباشرة.

نظرًا لثقته الكبيرة في كفاءة نوبار باشا ومهاراته الدبلوماسية، أوفده إسماعيل إلى العاصمة العثمانية الآستانة (إسطنبول حاليًا) لإجراء مفاوضات مع السلطات العثمانية لتسوية هذا الأمر. بفضل حكمته وخبرته التفاوضية، تمكن نوبار من العودة إلى مصر حاملاً فرمانًا سلطانيًا يُحقق رغبة إسماعيل، حيث منح هذا الفرمان لإسماعيل لقب "الخديو"، وهو لقب أعلى من "والي" ويعبر عن مستوى أوسع من الاستقلالية داخل حدود الدولة العثمانية.

إضافة إلى ذلك، نص الفرمان على تعديل نظام الوراثة ليكون محصورًا في نسل إسماعيل، مما شكّل نقلة نوعية في بنية الحكم في مصر وعزز من سيطرة الأسرة الحاكمة على المستقبل السياسي للبلاد. كان هذا الإنجاز شهادة على براعة نوبار باشا في التعامل مع القضايا الحساسة وتحقيق المكاسب التي تخدم المصالح المصرية.

المحاكم المختلطة ١٨٧٤م

تم تكليف نوبار باشا من قبل الخديوي إسماعيل بمهمة دبلوماسية بالغة الأهمية إلى أوروبا، حيث عُيّن مندوبًا مفوضًا لمفاوضة الدول العظمى بشأن إنشاء المحاكم المختلطة. كانت هذه المحاكم تهدف إلى استبدال المحاكم القنصلية التي كانت تختص بمحاكمة الأجانب في مصر، والتي كثيرًا ما تسببت في مشكلات بسبب اختلاف القوانين وعدم خضوعها لسيادة الدولة المصرية.

قضى نوبار باشا في أداء هذه المهمة سبع سنوات، تنقل خلالها بين ممالك أوروبا، وعقد لقاءات ومفاوضات مع قادة الدول العظمى وملوكها. وقد أتيحت له في هذه الفترة مالية كبيرة، إذ كانت الخزانة المصرية مفتوحة أمامه لتمويل جهوده وضمان تحقيق الأهداف المطلوبة. وعلى الرغم من الأموال الطائلة التي أُنفقَت خلال تلك الفترة، عاد نوبار إلى مصر محققًا نجاحًا كبيرًا، حيث تمكن من إنشاء نظام المحاكم المختلطة.

بعد إنجاز هذه المهمة التاريخية، قرر نوبار باشا اعتزال العمل العام لفترة من الزمن. لكنه لم يلبث أن عاد إلى الحياة السياسية، ليواصل لعب أدوار محورية في تطوير مؤسسات الدولة المصرية وتعزيز مكانتها على الساحة الدولية.

على الرغم من انتماءه للديانة المسيحية كان أول مسيحى يتولى رئاسة الوزارة المصرية فى تاريخ مصر الحديث وأول مسيحى يحصل على رتبة الباشوية من الخديو إسماعيل، إلا انه استطاع بحنكته السياسية أن يكون له طريقة إقناع فى تعامله مع الدولة العثمانية وولاة مصر، حيث ارتكزت سياسته فى أحيان كثيرة على مس الوتر الإسلامى.. فنجده يتحدث مع إسماعيل عن الشورى فى الإسلام، وأنه سوف يحكم مع مجلس النظار (الوزراء) ومن خلاله.

وقد قام نوبار باشا بالدفاع عن نفسه بعد أن تم توجيه الاتهام لحكومته بموالاتها للأجانب على حساب المصريين، وما اشتُهر عنها بالترعة الأوربية، وإثارة المصالح الأجنبية على نظيرتها الوطنيه، مما أدى إلى زيادة كراهية الناس للوزارة لاشتمالها على عضوين أجنبيين هم من كانا لهما النفوذ الفعال وهما السير ريفرز ويلسون وزير المالية، والمسيو بلنيير وزير الأشغال. لذا، قال نوبار فى مذكراته مُدافعاً عن نفسه "كنت أُريد تغيير الرقابة الأجنبية التى فرضتها علينا القوى العظمى بإدارة أخرى نخضع لها بأنفسنا، جعلت المراقبين وزيرين، كنت أُريد وزراء مصريين ولكنهم فرضوا علىّ الأجانب، كانت دائما الرقابة، دائما حكومتان تحكمان حكومة ثالثة وهذه ليست فكرتى التى فشلت وإنما هى فكرة الحكومة الفرنسية"، وقد رصد نوبار في مذكراته مساوئ الامتيازات الأجنبية، ونجاح الشق المتعلق بالقضاء القنصلي، وتلك الأحكام التي صدرت ضد الأهالي، وما فرض على الحكومة من تعويضات باهظة للأجانب.

أبو الفلاح المصري والنشاط الزراعي

لم يكن نوبار باشا بمنأى عن الفلاح المصري الذي عاني خلال هذه الفترة، حيث استطاع أول رئيس وزراء لمصر أن يحصل على لقب "أبو الفلاح" من الشعب المصري، واستطاع أن يجذب المصريين إليه بعد تعاطفه مع الفلاح المصري إزاء ما كان يُعانيه من الضرائب والسخرة، وكذلك الغُبن الذي وقع عليه نتيجة أحكام المحاكم القنصلية الجائرة، حيث عايش بؤس الفلاحين الذين سُخروا وتركوا زراعاتهم وهجروها، وكانوا في الوقت نفسه مطالبين بدفع الضرائب. ولا غرو أن سُجلت مواقفه لصالح الفلاحين المصريين سجلت بحروف من ذهب في التاريخ، حيث روى في مذكراته " لقد طلبتم مني أربعة آلاف رجل سخرة من أجل إصلاح الخط، وأنتم تعلمون تماماً مشاعري حيال طبيعة هذا النوع من العمل، لقد أصلح كل من السيد مايش والسيد جازاجاس الخط بمجرد الاستعانة بعمال الصيانة العاديين؛ لذا أرجو أن تعتبروا أنفسكم لستم أهلاً للبقاء بعد ذلك في خدمة الإدارة" بهذه الكلمات الرنانة أظهر نوبار باشا أول رئيس لوزراء مصر سياسته الرافضة للسخرة واستعباد المصريين عندما تولى إدارة السكة الحديد بعد خطابه إلى روس كبير المهندسين الذي طلب من نوبار عمال السخرة لإصلاح عطل خط مزدوج أنشئ حديثاً بين دمنهور وكفر الزيات.

نظراً للاعتماد الكبير للاقتصاد المصري على الزراعة، قام نوبار باشا باتخاذ خطوات مهمة لتحسين الإنتاج الزراعي وتعزيز القدرة التنافسية للقطاع الزراعي في مواجهة التحديات الاقتصادية في تلك الفترة. وكان من أولى أولوياته تحسين نظام الري، حيث عمل على إصلاح وتوسيع شبكة القنوات والري، مما ساعد على زيادة كفاءة استخدام المياه في الأراضي الزراعية وزيادة الإنتاجية الزراعية. وقد أسهمت هذه الإصلاحات في زيادة الرقعة المزروعة، مما أدى إلى تعزيز القدرة الإنتاجية للقطاع الزراعي وتوفير المزيد من المحاصيل للسوق المحلي.

كما كانت مصر تُعاني من تخلف القطاع الزراعي مقارنة بالتطورات الصناعية في أوروبا، حيث لم يكن قادراً على مواكبة التحولات الاقتصادية والتكنولوجية التي شهدها العالم في تلك الفترة. لذلك، سعى نوبار باشا إلى تشجيع تطور الصناعة الزراعية من خلال تحسين التقنيات والآلات المستخدمة في الزراعة، والتوجه نحو تعزيز الإنتاج الزراعي الموجه للتصدير. كانت هذه الجهود تهدف إلى تحقيق الاكتفاء الذاتي من المنتجات الزراعية لتلبية احتياجات السوق المحلي، بالإضافة إلى زيادة الصادرات الزراعية إلى الأسواق العالمية، مما ساعد في تعزيز الاقتصاد المصري وزيادة موارده المالية.

بذلك، كان نوبار باشا يدرك أهمية تحديث القطاع الزراعي لمواكبة التطورات العالمية، فعمل على تطويره بشكل يتناسب مع احتياجات السوق المحلي ومتطلبات التصدير، مما أسهم في تحسين الوضع الاقتصادي للبلاد ودعم مكانتها التجارية في السوق الدولي.

الصناعة المحلية

رغم أن نوبار باشا لم يحقق قفزات كبيرة في مجال الصناعة مقارنة بما حققه في قطاع الزراعة أو المجالات الأخرى، إلا أنه كان حريصاً على تطوير بعض الصناعات المحلية التي تُعد من أهم الركائز الاقتصادية في تلك الفترة. وكان من أبرز الصناعات التي أولها اهتماماً خاصاً بها كانت صناعة النسيج وصناعة السكر. ففي صناعة النسيج، عمل على تحسين التقنيات والآلات المستخدمة، وسعى لتوفير الظروف المناسبة لنمو هذه الصناعة من خلال دعم المعامل المحلية وفتح أسواق جديدة للمنتجات المحلية. كما بذل جهوداً لتطوير صناعة السكر، حيث حاول تعزيز الإنتاج المحلي لتلبية احتياجات السوق المحلية وتقليل الاعتماد على الاستيراد.

ورغم هذه الجهود، ظل القطاع الصناعي في مصر يعاني من ضعف كبير مقارنة بالدول الأوروبية، حيث استمر الاعتماد بشكل كبير على المنتجات المستوردة من أوروبا، سواء في مجال الصناعات أو المنتجات الاستهلاكية. هذا الاعتماد على الواردات الأوروبية كان يؤثر سلباً على قدرة الصناعة المحلية على التنافس، حيث كانت المنتجات الأوروبية تتمتع بتقنيات متطورة وأسعار منافسة، بينما كانت الصناعات المصرية تفتقر إلى بعض العناصر

الأساسية مثل التكنولوجيا المتقدمة ولرأس المال الكافي للتوسع والنمو. لذا، لم تتمكن الصناعات المحلية من تحقيق التقدم الكبير الذي يوازي تطورات القطاع الزراعي أو القطاعات الأخرى في عهد نوبار باشا، مما أدى إلى بقاء الاقتصاد المصري مرتهنًا إلى حد كبير بالمنتجات الأوروبية.

نوبار وإدارة الدين العام فى عهد إسماعيل

خلال حكم إسماعيل، اعتمدت الحكومة المصرية بشكل متزايد على القروض الأجنبية لتمويل المشاريع العملاقة التي كان يُخطط لها، مثل بناء قناة السويس وتطوير البنية التحتية للبلاد. وعلى الرغم من أهمية هذه المشاريع في تحديث البلاد، فإنها أدت إلى تفاقم الأزمة المالية بسبب شروط القروض القاسية والفوائد العالية، مما أغرق مصر في بحر من الديون التي عجزت عن سدادها في الوقت المحدد مما وضعها في موقف مالي بالغ الصعوبة.

دور نوبار باشا في إدارة الأزمة المالية

تولى نوبار باشا مسؤولية إدارة الديون والتفاوض مع الدول الأوروبية فى ظل الأزمة المالية التى تتعرض لها البلاد آنذاك. وكان نوبار، بفضل خبرته الدبلوماسية الواسعة ومهاراته في التفاوض، في مقدمة من تولوا مهمة إعادة هيكلة الديون المصرية. وقد اتخذ عدة خطوات مهمة في هذا الصدد:

• قام نوبار باشا بعقد مفاوضات مع الدول الدائنة الكبرى بريطانيا وفرنسا بهدف التوصل إلى تسهيلات بشأن سداد الديون. كانت هذه المفاوضات تهدف إلى مد فترات السداد وتقليص الفوائد المفروضة على القروض، وهو ما من شأنه أن يخفف العبء المالي على الحكومة المصرية.

• كما عمل نوبار على إعادة هيكلة الدين العام بشكل يسمح لمصر بتخفيف الضغوط المالية. شملت هذه الإجراءات تعديل شروط السداد بما يتناسب مع الوضع المالي للبلاد، وهو ما ساعد على تجنب الأزمة المالية الكبرى أو الإفلاس

• بفضل مهاراته التفاوضية، تمكن نوبار من تجنب الإفلاس الكامل الذي كان يُهدد البلاد، حيث كانت مصر على وشك الدخول في حالة من العجز التام عن سداد ديونها. كانت هذه الجهود حاسمة في الحفاظ على السيادة المالية للبلاد، ولو بشكل مؤقت.

• على الرغم من أن جهود نوبار باشا أسهمت في تخفيف حدة الأزمة المالية، إلا أن الديون الأجنبية ظلت تُمثل عبئًا ثقيلًا على الاقتصاد المصري، واستمرت الحكومة في مواجهة صعوبات في سداد الديون. وعلى المدى القصير، كانت هذه الجهود أساسية في تجنب الإفلاس وفي استقرار الوضع المالي للبلاد.

• بالرغم من نجاح نوبار باشا في تجنب الإفلاس، إلا أن الأزمة المالية أدت إلى زيادة التدخل الأوروبي في شؤون مصر الاقتصادية والسياسية في السنوات اللاحقة. فقد كانت الديون المستحقة بمثابة مدخل للهيمنة الأجنبية على مصر، حيث تم إنشاء لجنة إدارة الدين العام (صندوق الدين المصرى) في عام ١٨٧٦م، التي كانت تتكون من ممثلين عن الدول الدائنة، مما مهد الطريق لتقليص الاستقلال المالي لمصر في المستقبل.

ومن ثم ، يُمكن القول إن جهود نوبار باشا في التعامل مع أزمة الديون الأجنبية أسهمت في تجنب انهيار اقتصادي حتمي، وحققت بعض الاستقرار المالي في فترة حرجة من تاريخ مصر، لكنها لم تمنع البلاد من الوقوع تحت تأثير التدخلات الأجنبية التي تعمقت بعد ذلك.

تعديل نظام الضرائب

قام نوبار باشا بدوراً بارزاً في تحسين نظام الضرائب في مصر خلال فترة توليه المناصب العليا في الحكومة، حيث قام بالتركيز على زيادة كفاءة تحصيل الضرائب وتقليل الفساد المستشري في النظام الضريبي الذي كان يُعاني منه البلد. من خلال إجراءات تنظيمية وفنية، وسعى نوبار إلى تحديث نظام الإيرادات الحكومية، مما أسهم في تحسين الوضع المالي للدولة بشكل عام.

وقد شملت إصلاحاته إعادة هيكلة آلية تحصيل الضرائب، بما يضمن العدالة في توزيع العبء الماليين مختلف طبقات

المجتمع. على الرغم من الجهود التي بذلها لتطوير النظام الضريبي، فإن بعض السياسات التي اتبعها نوبار باشا كانت تستهدف في المقام الأول الطبقات العليا والأغنياء، وهو ما أثار موجة من الانتقادات في بعض الأوساط الاجتماعية، حيث اعتبرها البعض مجحفة بحق الفئات الأكثر قدرة على الدفع، مما أثار الجدل حول مدى عدالتها. نوبار باشا هو أحد الشخصيات التاريخية التي أسهمت بشكل كبير في تشكيل الاقتصاد المصري في القرن التاسع عشر. ولعب دورًا محوريًا في إصلاح النظام المالي، وتحسين البنية التحتية، وإدارة الديون، بالإضافة إلى تشجيع الاستثمارات الأجنبية. ولا شك أن تأثيره في تاريخ الاقتصاد المصري لا يمكن إنكاره. لقد كان نوبار باشا نقطة تحول في السياسة الاقتصادية لمصر، أسهم في التطور التدريجي لها، رغم أن تحدياته الداخلية والخارجية كانت دائمًا تُعرقل تحقيق رؤية شاملة لاقتصاد مستقل وقوي.

لا شك أن نوبار باشا نوباريان خدم الحكومة المصرية خدمات ذات بال فعاصر كل ولاتها من محمد على باشا إلى الخديو عباس باشا الثانى (١٨٧٤ - ١٩٤٤م)، وهو يعمل بنشاط وحكمة، فلم يقم فيها مشروع عظيم إلا كانت له فيه باع طولى، وقد نال من رتب الدولة العليّة إلى رتبة المشيرية، وحاز نياشين شتى منها: نيشان أوفيسيه دي لجيون دونور من الحكومة الفرنساوية وغير ذلك. بيد أن نوبار باشا انقطع إلى حياته الخاصة فى نهاية المطاف، ولما أصابه المرض سافر إلى أوروبا لتلقى العلاج، فأدركه القدر المحتوم هناك وتوفى فى ١٤ يناير ١٨٩٩م، فنُقلت جثته إلى مصر، ودُفنت فيها بما لاق بمقامه من الإكرام والوقار. وكان رحمه الله ذكيًا حازمًا، حسن السياسة، ليّن العريكة، وقد أحرز ثروة طائلة، ويُعَدُّ من أغنى سكان وادى النيل، وكان كريمًا غيورًا على مصلحة أبناء جلدته، فنال الأرمن في أيام وزارته مساعدات جمة بذل لهم فيها المال الكثير.





نوبار باشا.. الرجل والتاريخ

بقلم: هدير مسعد

نوبار باشا (١٨٢٥ -١٨٩٩). سياسي أرمني عتيق ومخضرم، تولّى هذا الرجل رئاسة الحكومة المصرية ثلاث مرات، كانت الأولى سنة ١٨٧٩ والأخيرة سنة ١٨٩٤. ترك نوبار مذكرات قيّمة للغاية، دوّنها باللغة الفرنسية في تسعينيات القرن التاسع عشر، وتمّ نشرها في لبنان سنة عام ١٩٨٣، قبل ترجمتها إلى اللغة العربية، حيث صدرت عن دار الشروق في القاهرة سنة ٢٠٠٩.

وتكتسب مذكرات نوبار باشا أهمية استثنائية لصراحتها الجارحة، وتفاصيلها الكثيرة عن حياة حكام مصر، نظراً لقرب المؤلف منهم جميعاً. معظم سياسيي المنطقة العربية في القرن التاسع عشر لم يهتموا بتدوين المذكّرات، ما يضيف أهمية لهذه الأوراق، حيث يعود حرص نوبار على كتابة سيرة حياته إلى ثقافته الفرنسية وكثرة أسفاره إلى أوروبا، حيث تعلم الكثير من قادتها.

نوبار الأرمني المسيحي جاء مصر، عام ١٨٤٢ في سن السابعة عشرة، واتخذها وطنا لم يعرف غيره، وكتب أنها "في الحقيقة تستوعب، بل تفترس بشكل كامل الأجانب الذين يعيشون على ترابها".

فقد كانت حياة نوبار باشا مليئة بالأحداث والتحولات جعلته من أهم الشخصيات السياسية في عصره خاصة انه عاصر عدد من حكام الاسرة العلوية، فقد ترقي نوبار باشا من مترجم إلى مستشار للحاكم، ووزير لأكثر من وزارة، ثم أول رئيس للوزراء، وتولى رئاسة مجلس الوزراء ثلاث مرات في ظل ثلاثة من الحكام. نوبار ظل بجوار إبراهيم باشا في رحلات أوروبية، وفي مرض الوفاة. حيث يحكي أن



نازلي هانم بنت محمد علي، "المعروفة بتاريخها الدامي والشهواني"، كانت قريبة من شقيقها إبراهيم في أيامه الأخيرة، وعند دخول نوبار ومساعديه، كانت نازلي تتخفى "في منتهى العناية"، وراء ستارة سوداء مفرودة، يحملها اثنان من الأغوات، وحين ترغب في الخروج "كنا ننبطح على الأرض وأعيننا تنظر إليها"، وهي وراء الستارة السوداء.

وهذا ما جعل مذكرات نوبار باشا من اقوي المصادر التي تكشف لنا الكثير من تفاصيل والاسرار عن هذا العصر، كذلك من أبرز سمات هذه المذكّرات هو إبحار صاحبها المفرط في الوصف الدقيق، حيث يقول مثلاً عن أول لقاء جمع بينه وبين والي مصر، محمّد علي باشا: "وفي نهاية صالة كبيرة جميلة متناسقة في تقسيم نسبها وفراغاتها تضيئها نجفة من الكريستال الأبيض، جلس رجل في إحدى أركانها على أريكة تكسوها أقمشة منسوجة بخيوط من ذهب. أسند ظهره إلى وسادة وكانت ركبتيه مثنيتين بشكل خفيف، وخنجره في متناول يده، يستمع إلى أحد أمناء سره يقرأ عليه البريد على ضوء شمعدان مصنوع من حديد أبيض.

نوبار باشا وأولى خطواته السياسية

دخل نوبار على الباشا الكبير وهو فتى لم يتجاوز السابعة عشر من عمره، وكان يومها بمعيّة خاله بوغوص بك يوسفيان، وزير التجارة في عهد محمّد علي. عمل سكرتيراً لخاله قبل وفاة الأخير سنة ١٨٤٤، ليتم من بعدها إلحاقه بمكتب الوالي، مترجماً له ومساعداً لنجله إبراهيم الذي كان يعاني من نزيف حاد في أمعائه. سافر معه نوبار إلى أوروبا لتلقي العلاج، وتحدّث كيف بكي إبراهيم عند مشاهدة جمال الريف الفرنسي، قائلاً له: "انظر كم هي جميلة. أني أبكي لأنني أرى هذه البلاد تنعم بالرخاء، بينما مصر تعاني من البؤس على الرغم أن أرضها أكثر خصوبة، سوف أغير ذلك إذا مدّ الله في عمري". ولكن عندما اشتد المرض بإبراهيم، قال لنوبار: "لا لن أموت. لقد خلقني الله لخير مصر. لن يكون من الإنصاف أن يدعوني الرب إلى جواره قبل أن أعيد الحياة إلى مصر وأجعلها سعيدة."

ولكن أمنية إبراهيم لم تتحقق، فقد وافاه الأجل قبل رحيل أبيه العجوز سنة ١٨٤٨، بعد ثلاثة أشهر فقط من توليه الحكم خلفاً لمحمّد علي. يعترف نوبار أن الأب كان شديد القلق من مطامع ابنه السياسية، عكس ما كتب عنه، وأنه كان يرى في إبراهيم منافساً على السلطة أكثر من كونه سنداً مطيعاً. يحدثنا نوبار كيف كان إبراهيم لا ينام الليل في أيامه الأخيرة، حيث كان يتخيّل ضحايا حروبه الكثر يخرجون من العتم ليطاردوه ويوقظوه من نومه، في صورة مخالفة تماماً عن صورة إبراهيم المعهودة في كتب التاريخ، كرجل جبّار وقوي.

يضيف نوبار مستطرداً أن محمد علي باشا "فقد عقله تماماً" وصار وهو في سن الشيخوخة يتخيّل نفسه وهو على رأس جيشه الجرار، يحارب على أبواب القسطنطينية، يعطي أوامر لضبّاط لم يعد أحد منهم على قيد الحياة. في أيامه الأخيرة كان محمّد علي "يدرك الحالة التي هو عليها ويراقب نفسه، وما إن يشعر بأنه سوف يدخل في نوبة هذيان وفقدان العقل إلا وقد كان يختلي بنفسه، في عزلة تامة، محاولاً بكل قواه أن يستعيد تسلسل أفكاره"، وعندما بلغه خبر وفاة ابنه إبراهيم قال محمّد علي: "كنت أعرف... كان قاسياً معي كما كان مع الجميع. لقد عاقبه الله وأماته."

نوبار في زمن عباس الأول

خلال العام ١٨٤٨، انتقل الحكم من محمد علي إلى إبراهيم ومن ثم إلى عباس الأول، أكبر أحفاد الباشا الكبير. فقال له الجد المؤسس: "لقد لعنت إبراهيم لأنه حبسني، ولذا قبض الله روحه. فلا تتصرف نحوي مثله إذا كنت تريد ألا ألعنك أنت أيضاً". توفي محمّد علي خلال عهد حفيده الشاب، ولم يحظ بجنازة تليق بمؤسس دولة مصر الحديثة، حيث لم تُغلق المتاجر ولم تنكس الأعلام ولم يخرج في جنازته إلا وزير واحد فقط، ليعترف نوبار: "ومع اختفاء محمّد علي اختفت العبقرية التي كانت تسهر على مصر، بل إن مصر كانت محمّد علي وهو كان مصر."

خدم نوبار مع عباس وأحبه كثيراً، كما تحسّر عليه يوم اغتياله طعناً بالسكاكين على يد مجموعة من حرّاسه في تموز ١٨٥٤: "كُتم خبر الكارثة لمدة ثماني وأربعين ساعة، نُقل خلالها جثمان عباس من بنها إلى قصره بالعباسية في وضح النهار، بعد أن تم إجلاسه بثيابه الرسمية في عربة تجرها أربعة خيول كما لو هو على قيد الحياة."

نوبار وسعيد باشا.. وتوتر العلاقات

ذهبت الولاية من بعد مقتل عباس إلى عمّه محمّد سعيد باشا، نجل محمّد علي، الذي لا يُخفي نوبار عدم اعجابه به بتاتاً. يقول نوبار إنه ومع غياب عباس فقدت مصر طبيعتها الشرقية، وتغلغل الأجانب في أروقة حكمها، وصاروا يتحكمون بالوالي الجديد ضعيف الإرادة والشخصية، الذي حاول بشتى الطرق إرضاءهم: "تخلى التاريخ عن عباس، ونسي الناس أن عهده كان أكثر العهود أماناً في مصر، ولم يكن والٍ في مثل حكمته وقدرته على إدارة الاقتصاد وموارد الخزينة وحرصه على مصالح البلاد."

صار القناصل هم حكام مصر الحقيقيين، لدرجة أن أحدهم تجرأ على زيارة قصر الوالي من دون موعد وهو في ثياب النوم. كان سعيد وقبل وصوله إلى الحكم يَعمل قائداً لأسطول أبيه البحري، "مع أنه كان يعاني من دوار البحر"، وقد دخل التاريخ لقُربه من رجل الأعمال الفرنسي

فيرديناند دي ليسيبس، الذي أعطاه سعيد امتياز شركة قناة السويس، والتي كلفت ٢٠٠ مليون فرنك فرنسي. عارض نوبار المشروع من يومه الأول، كما عارض أعمال السخرة التي حُفرت عن طريقها القناة، ومات خلالها الآلاف من المصريين. يقول نوبار: "كان من شأن القناة أن ترفع من الأهمية التجارية لأراضي مصر، ولكن ستؤدي إلى القضاء عليها سياسياً". أسرف سعيد لكي يتمكن من مجارة الملوك والنبلاء، وأغدق بالهدايا والامتيازات على الأجانب في القاهرة، الذي بلغ عددهم ١٥٠ ألفاً، وركّب ديناً كبيراً على نفسه وصل إلى ٨٨ مليون فرنك، تم اقتراضه بفائدة فاحشة من المصارف الأوروبية.

ولكن نوبار باشا يعترف بإنجازات سعيد على قلتها، ومنها سماحه للفلاح أن يمتلك الأرض التي كان يزرعها "حتى لو كانت ملكاً للحكومة"، كما قام سعيد بتعين شقيق نوبار حاكماً على السودان، ليكون أول حاكم مسيحي على بلد عربي، بالرغم من معارضة بعض المحيطين به، الذين وصفوا نوبار وشقيقه بالكفار والملحدين. وأخيراً عيّن الوالي نوبار مديراً لسكك الحديد سنة ١٨٥٧، التي كانت تدار فعلياً من قبل شخص أجنبي يُدعى المستر غرين، شقيق قنصل بريطانيا العام في مصر. وعندما طلب هذا الأخير الاستقالة، كافأه سعيد بعشرة آلاف جنيه استرليني دون التفكير بمدى تأثير ذلك على الموظفين المصريين "الذين عملوا طوال حياتهم بمرتب ضئيل، وماتوا وهم في الخدمة، أو أخرجوا على المعاش لينالوا مبلغاً تافهاً حقيراً."

ويضيف نوبار أن جنون سعيد أوصله إلى جلسات تحضير الأرواح، حيث كان يستحضر روح أبيه في كل ليلة ليتناقش معه في أمور الدولة المصرية، كما قام بتعين قرصان على رأس البحرية المصري يدعى حافظ باشا. وفي ختام عهده وقبل وفاته سنة ١٨٦٣، وقف سعيد أمام نوبار باشا وبكى بحرقة كما بكى إبراهيم باشا من قبله قائلاً: "لقد خربت مصر... خربتها تماماً. ماذا سيقولون عنّي؟."

الباشا والخديوي

انتقل بعدها نوبار، الموظف الأمين والوفي، إلى خدمة الوالي الجديد إسماعيل، نجل إبراهيم وحفيد محمّد علي، الذي وبحسب وصف نوبار باشا في المذكرات، "وجد مصر صغيرة جداً عليه"، فأراد التوسع نحو سورية التي كان قد حكمها أبيه لمدة تسع سنوات ما بين ١٨٣١-١٨٤٠. ولكنه أقلع عن هذا المشروع لأن شعوبها كانت تُعد "شعوباً مثيرة للشغب، وتتكون من أعراق متعددة، وهي بعيدة تماماً في تكوينها عن الشعب المصري، السهل في إدارته."

عُيّن السياسي الأرمني العتيق والمخضرم نوبار باشا وزيراً في عهد إسماعيل، ثمّ رئيساً لأول حكومة "نظارة"، وتم إرساله إلى إسطنبول لتغير شروط الوراثة في حكم مصر، لتصبح لأكبر أبناء الحاكم سناً وليس لما تبقى من أبناء محمّد علي، وبذلك وبفضل نوبار، ضمن إسماعيل الحكم لابنه توفيق الذي ولي سنة ١٨٧٩، ولأحفاده من بعده، عباس حلمي الثاني (١٨٩٢-١٩١٤) وحسين كامل (١٩١٤-١٩١٧) وفؤاد (١٩١٧-١٩٣٦)، وصولاً إلى الجيل الرابع من الأسرة العلوية، المثل بالملك فاروق، آخر ملوك مصر قبل ثورة الضباط الأحرار سنة ١٩٥٢.

وعندما خضع السلطان العثماني إلى هذا الطلب، لكون مصر كانت ما تزال تتبع سياسياً للدولة العثمانية، تمادى إسماعيل بمطالبه عن طريق نوبار، فطلب ألا يتم تحديد عدد القوات التي يمكن لمصر الاحتفاظ بها، وحق منح الأوسمة المصرية باسمه، وحمل لقب "عزيز مصر" الذي أطلق على النبي يوسف من قبله. قاد نوبار مفاوضات شاقة مع الصدر الأعظم علي باشا في إسطنبول، الذي قبل هذه المطالب، إلا اعطاء إسماعيل لقب "عزيز مصر"، لأن السلطان كان اسمه عبد العزيز، ولا يمكن لخليفة المسلمين أن يكون عبداً لوالي مصر. فاقترح عليه لقب "الخديوي" الذي كان ينعم به شاه إيران، وقبل بذلك إسماعيل على مضض، حيث كان منشغلاً بحفل افتتاح قناة السويس الذي تم في عهده سنة ١٨٦٩.

تنتهي المُذكّرات سنة ١٨٧٨، عند عزل إسماعيل عن الحكم ووصول توفيق إلى السلطة، الذي قام بتعين نوبار رئيساً للوزراء مرة ثانية سنة ١٨٨٤.

لا نعرف سبب عدم دخول نوبار في هذه الحقبة: هل لأنه كان ما يزال نشطاً سياسياً عند تدوين المذكرات عام ١٨٩٠،

ويطمح بالعودة إلى السلطة (الذي تحقق بالفعل عام ١٨٩٤). أما أن حالته الصحية لم تعد تسمح بالكتابة؟ هذه الأسئلة تبقى رهن التاريخ، والثابت الوحيد أنه وفيما كتب، ترك نوبار باشا وثيقة بالغة الأهمية، نالت مكانتها في المكتبة العربية، مثبتاً أنه رجل دولة من الطراز الرفيع يحق لمصر أن تفتخر به كما يحق للشعب الأرمني كلّه.

نوبار ونضاله لصالح المصريين

ذهب نوبار، ليلة زواجه وهو في عمر الخامسة والعشرين إلي القسطنطينية عام ١٨٥٠، للقاء السير ستراسفورد كاننج سفير بريطانيا ذي الإرادة الحديدية، فأخضعه للانتظار "القاتل" أربع ساعات، كإحدى الطرق لكي يدرك نوبار أن السفير "أعظم وأكبر" من الوالي عباس باشا. ثم استقبله السفير وقد ذكر ذلك نوبار في مذكراته قائلا: "دون أن يتحرك من مقعده الوثير، وأشار لي بحركة من يده إلى الكرسي". وذلك بعد مرور أربع ساعات من الانتظار، فهي ساعات كبيسة، على شاب في الخامسة والعشرين، تنتظره عروسه، وهو ينتظر لقاء السفير، ويعلم أنه يتعمد إذلاله.

مات عباس وجاء الوالي سعيد باشا، وحدث بينه وبين السفير البريطاني في القسطنطينية السير هنري بولور سوء تفاهم، فأرسل نوبار إلى السفير، وانتظر في غرفة عارية، نحو نصف ساعة. ثم دخل نوبار، وأدهشه التناقض بين صالون الانتظار ومكتب السفير، فالجدران تكسوها ستائر من الهند، كما توجد هدايا تذكارية، وتماثيل، ومنضدة مغطاة بمفرش داكن عليها كميات من الأوراق، حتى إن السفير "كان يصعب عليه العثور على نفسه وسط هذا كله"، وكالعادة استقبله السفير "جالساً وطرف حذائه الرفيع يطل من قدمه المسجونة وراء المكتب بشكل مثير للضحك من تحت المفرش الذي يكسو مكتبه" بدا السفير وقوراً نبيلاً، كأنه قادم من القرن الثامن عشر، "ينقصه فقط منديل الرقبة لتكتمل هذه الصورة التي تبدو من الخيال".

وبين عامي ١٨٥٠ و١٨٦٨ تغير اللورد ستراسفورد كاننج، لم يعد صاحب منصب سياسي. وفي لندن، استقبل نوبار من دون انتظار، لكنه احتفظ بهالة الهيمنة، والعيون المتسلطة نفسها. لمح نوبار أصابع "تخشبت بفعل النقرس، وأرجلاً مريضة مضمدة بقماش من الشاش".

وأرجلاً مريضة مضمدة بقماش من الشاش".

ويمكن القول ان مذكرات نوبار باشا، التي نشرتها دار الشروق في القاهرة، تحتوي على هوامش شخصية حميمة، تجسدها رسائله إلى زوجته، ففي مواجهة تغوّل شركة قناة السويس ودفاع دي ليسبس عن السخرة، كان نوبار في القسطنطينية، يطالب بحق الفلاح العامل في القناة في نيل أجر "من قرش إلى اثنين في اليوم. "ومن هناك كتب إلى زوجته، في سبتمبر ١٨٦٣: "يا إلهي، يا لهم من رجال حتى الوجهاء منهم يجدون أنه من العدل أن نجعل الفلاحين يعملون دون أجر ودون طعام وأن يتم استعبادهم وإبعادهم عن زوجاتهم وأطفالهم لمدة خمسين يوماً. كم أود أن تتم معاملة كل هؤلاء الذين يتحدثون هكذا كما يُعامل الفلاح على أيديهم. "إنه سقوط الحداثة في الاختبار الإنساني، وسفور التناقض بين النظرية والتطبيق، واعتبار شعار الثورة الفرنسية امتيازاً للفرنسيين وللأوروبيين وحدهم، أما غيرهم فليست له حقوق، لا إخاء ولا مساواة. وفي أكتوبر ١٨٦٣، كتب نوبار إلى زوجته أنه يعمل في "الجحيم"، محاولاً إقناع ممثلي شركة قناة السويس بحقوق مصر وبالعدالة للفلاحين، وهذا مجهود شاق "يفقدني الكثير من شبابي". وفي رسالة تالية يقول إنه عانى الأرق، وظل يعمل على أعصابه طوال النهار، "لقد أصبحت أكثر عصبية منك."

وعندما تعقدت الأزمة الاقتصادية، وأرسلت الحكومة الإنجليزية عام ١٨٧٥، المسيو "كيڤ" على رأس لجنة اقتصادية ومالية، للتحقيق حول الوضع الاقتصادي، "غلت كل الدماء المصرية في عروقي"؛ لأن تلك الوصاية كانت بداية وضع أيديهم على مصر.

وتلك ميزة العمل الذي يدونه صاحبه وعينه على ذاته لا على ما يمكن أن يقوله الناس عنه، فلم يكن نوبار ينتوي أن تكون كلماته متاحة للجميع، ولهذا استفاض في تفاصيل صغيرة وحميمية، عن حياته في ظل من حكموا مصر خلال القرن التاسع عشر، وبالتالي تغدو هذه التفاصيل الدقيقة بمثابة مشاهد حية للانفعالات الصغيرة والغضبات الكبيرة والعلاقات المتوترة والصداقات المتينة، والأحداث الكبيرة، والتواريخ المهمة. هذه التدوينات التي حاول نوبار سكب ما كان يعتمل بداخله خلال سنوات وسنوات من العمل داخل الإدارة المصرية، تخبرنا بالكثير من تفاصيل أحد أهم القرون في تاريخ مصر الألفي؛ القرن التاسع عشر. ومن المصادفات السعيدة، أن أتت هذه التدوينات من قلم أحد أهم وجوه ورجال ذلك القرن.

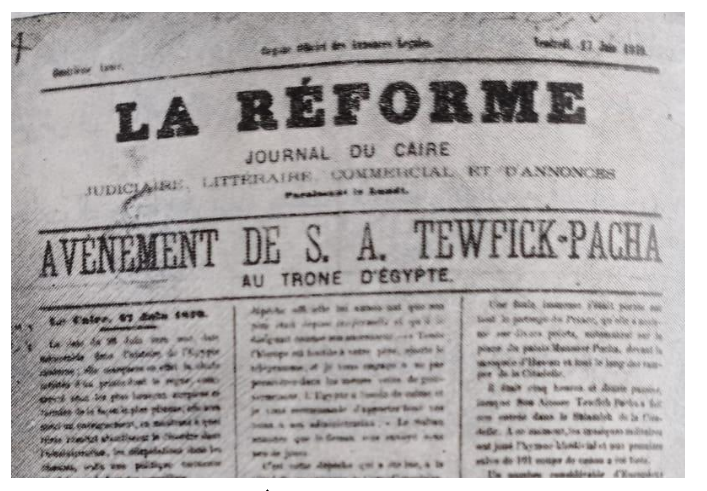


نوبار باشا في الصحافة الفرنسية في مصر حتي قيام الثورة العرابية



بقلم: عطا درغام

في عام ١٨٦٣ ،أنشأ الموسيو "أنطون موريس" جريدة "ليجبت" في الإسكندرية، وبدأت تُعارض "إسماعيل" أشد المُعارضة، وتقاومه في أفكاره، وتسّفه في مشروعاته، وتنبه الأجانب إلي سوء نيّاته نحوهم؛ فاضطر "شريف باشا" إلي أن يُصدر مكتوبًا في ٧ أكتوبر سنة ١٨٦٣؛ لتنظيم أمور الصحافة، حتي يحد بعض الشئ من مُعارضة "ليجبت"، وأبلغه إلي قناصل الدول. وفي عام ١٨٦٦ ،أصدر المحامي المسيو "نيكولا" جريدة "ليونيل"، نصف أسبوعية في يومي الخميس والأحد، وبدأت حياتها تجارية ،تهتم بحركة الأسواق والسفن الداخلة والخارجة في الميناء وأسعار البضائع، ولكنها كانت تحفل بالعلم والأدب أحيانًا ،ثم أخذت تُعالج أمور السياسة ولكن في غير عنف، وكان المسيو "نيكولو"، أول من نادي بفصل مصر عن تركيا. وكثيراً ما نازل صحيفتها الرسمية" لا توركي" ،ورد هجماتها علي الخديو "إسماعيل". وبعدها بعام في سنة ١٨٦٧ ،صدرت في بورسعيد صحيفة فرنسية أخري هي "لو چورنال دوكانال" ،وكان الغرض من إصدارها الدفاع عن مشروع المسيو "ديلسبس" ضد الهجمات العدائية التي كانت تشنها عليه الصحف الإنجليزية، وكانت الأفكار الأجنبية منقسمة ما بين محبذ للقناة وفوائدها من فرنسيين وأعوانهم ومُعارض لفكرتها ومتطير من مُعقباتها ،وكان يُديرها صحفي شاب اتخذ اسم "الأب مول"، وذاع صيت الجريدة حتي انتشرت، وقُرئت في العالم أجمع.. وحفلت سنة ١٨٦٨ بفوج جديد من الصحف الأجنبية في الإسكندرية والقاهرة،، وبلغ عددها سبعة. ولا يعنينا منها سوي الثلاث الفرنسيات،وهي صحيفة "لومونيتور دولا بوليستيه": نصف أسبوعية للإعلانات الرسمية والقضائية والتجارية ،وكان يحررها المسيو "فرانسوا ليڤرني"، الذي نشر أول دليل سنوي مصر تحت عنوان "دليل مصر العام" ،ثم جريدة



LA RÉFORME

JOURNAL DU CAIRE

JUDICIAIRE, LITTÉRAIRE, COMMERCIAL ET D'ANNONCES

AVÈNEMENT DE S. A. TEWFICK-PACHA

AU TRONE D'ÉGYPTE

يومية سياسية تحت عنوان إيطالي ،وتُسمي "مانيفستو چيورنا ليرو" ،ويُديرها "سكوتز" ،وأخيراً زعيمة صحف الفترة الأولي في عهد "اسماعيل" وهي صحيفة "لوبروجريه إچيبسيان" حاملةً لواء المعارضة، وفي خلال فترة تعطيل " لوبروجريه إچيبسيان" ،أصدر "المسيو موريس" في الأربعاء ١٠ مارس سنة ١٨٦٩، جريدة "لامباسيال ديجبت"،(سياسية. مالية، تجارية، أدبية) وللإعلانات، نحت نحو زميلتها المُعطّلة ،فقست في نقدها ،وكانت عنيفة في كتابتها. وكانت قد ظهرت في أواخر سنة ١٨٧٥ صحيفة "لا چازيت ديتر يبونو"، وكانت تعبر أصدق التعبير عن رأي فرنسا والفرنسيين في أحداث مصر، وتعتبر صورة صادقة وسجلًا صحيحًا لمطامع فرنسا في وادي النيل، وفي بورسعيد ظهرت صحيفة "لوبوسفورإچيبسيان" في١٤ مايو ١٨٧٨ لصاحبها "چاك سرير"، وكانت تعالج المسائل الأدبية في أول الأمر ثم المسائل السياسية في عام١٨٨١ ، وصحيفة "لاريفورم" التي أنشأها "چول باريبه" في القاهرة في مايو ١٨٧٥ ،

وكذا صحيفة "لوكوريبه إچيبسيان" في القاهرة ،صدر العدد الأول منها في ٣ سبتمبر ١٨٧٩ ، وصحيفة "ليجبت" غير صحيفة "ليجبت" التي ظهرت في عهد إسماعيل في أول نوفمبر ١٨٧٤ ،

وتحولت إلي "مونيتور إچيبسيان" وصدر العدد الأول منها في أول نوفمبر ١٨٨١ في الإسكندرية ،وهي يومية سياسية.

وهناك بعض الصحف التي صدرت خلال عام ١٨٨١ ، وإن لم تكن لها أهمية سياسية ،خوفًا أن يضيع التأريخ لها وسط زحمة الحوادث المتلاحقة، وقد تنوعت أهداف هذه الصحف كما تنوعت الموضوعات التي طرقتها كل منها ومنها " سبور" في ٣ يناير ١٨٨١ ، و" لوكو لتيفاتور" (الفلاح) في ١٥ مايو ١٨٨١ ، و" لوفانوس" ، تعطلت ثم ظهرت بدلًا منها مجلة "لودا ابوك وهي مصورة، و" لوبروچريه" في بورسعيد كانت يونانية ، ثم عادت إلي الظهور يونانية فرنسية.

ولم تكن هذه الصحف بعيد عن الأحداث في مصر، فأخذت تُعارض "إسماعيل" أشد المعارضة ،وتقاومه في أفكاره وتسّفه في مشروعاته، وتُنبه الأجانب إلي سوء نياته نحوهم ،وتدافع عن ديليسبس في نزاعه مع شركة القناة. وعلي الرغم من جهود "إسماعيل" في رفع مستوى البلاد والنهوض بها في جميع النواحي، فاستمر الهجوم علي الخديو ورجاله ؛منتهزة فرصة هبوط أسعار القطن وتفشي طاعون الماشية الذي هدد البلاد بالخراب، وراحت تشّهر به وبسياسته وتحمل علي وزرائه (ومنهم نوبار باشا) حملةً لا هوادة فيها ،متهمة إياهم بعدم التبصرة والتحوط للمستقبل.ونري صحيفة "أونيل" ترد هجمات الصحيفة التركية "لا توركي" علي "إسماعيل" وتدافع عنه.

نقد مشروع الإصلاح القضائي

كانت الامتيازات في أول أمرها قاصرةً علي أن يكون قضاء الأجانب الخاص فيما بينهم من شأن قناصلهم. فإذا بالأمر يتطور إلي أن يتحكم القناصل فيما بين الأجانب وبين المصريين ،مما أدي إلي وجود سبع عشرة محكمة قنصلية تطبق كل واحدة منها قانون بلدها. ومن هنا كانت الفوضي التي لا حد لها في أداء القضاء أولًا، وفي تنفيذ الأحكام بعد ذلك، وتلقاء هذا الانهيار في قضاء البلاد كلّف الخديو "إسماعيل" وزيره "نوبار باشا" ببحث الأمر؛ فسارع "نوبار" إلي وضع تقريره المعروف في أغسطس سنة ١٨٦٧ ،يشرح فيه مباديء النظام القضائي في ذلك الوقت، ويصف ما يقترحه من وجوه الإصلاح ورفعه إلي الخديو لإقراره، فأمر بإبلاغه إلي ممثلي الدول في مصر. وعندئذ لقي من الجاليات الأجنبية وطولها شديد المعارضة ،وكان أشدها عنفًا في معارضته الجالية الفرنسية، إذ سارت وراء حكومة فرنسا التي ظلت كما يروي لنا التاريخ تحارب الصحف الفرنسية ،ويعبّر أصدق تعبير عن رأي الجالية غير جريدة "لوبروجريه إچيبسيان" ، فرأيناها تنقد المشروع وتحمل عليه ،علي الرغم من أنها تُظهر موافقتها علي أن هذا التعدد في أنواع القضاء مع ما لكل نوع من تشريع خاص به، ومن إجراءات تستدعي تنفيذه من شأنه أن يؤدي إلي نتائج تدعو إلي الأسي والحزن، وخاصةً عندما يكون لعدة مدعين نفس المصلحة، في الوقت الذي ينتسبون فيه إلي جنسيات مختلفة، وعلي الرغم من اعترافها بأن العدالة عند كثير من القنصليات الأوربية كانت محلًا للنقد، إلا إنها تقول: "إنه ليس من الحكمة التحدث عن النقص في القضاء القنصلي دون الاعتراف بأن القضاء الوطني مازال ينقصه الكثير"، وتنبري تُناقش في تفصيل رأي جريدة "ليونيل" المؤيدة للحكومة في مشروعها.

ولما نشب التراع بين "إسماعيل" وشركة القناة، يلجأ إلي صديقه "نابليون الثالث" ليحكم بينه وبين الشركة. فما كان منه إلا أن خذل إسماعيل بإصدار حكمه في جانب الشركة ،وعندئذٍ صمم "إسماعيل" حتي ينتهي إلي أمر في إصلاح هذا الفساد، علي أن يلجأ إلي محاكم القسطنطينية لتحكم بين الأجانب والحكومة المصرية.

وهنا تنهض "لوبروجريه إچبسيان" لمقاومة هذا المبدأ عند الخديو، وتقول إن "محمد علي" كان حريصًا علي ألا يسمح بتدخل قضاء القسطنطينية في الخلاف بينه وبين الأوربيين ،وكذلك فعل الأوربيين ،وكذلك فعل من بعده كل من "عباس باشا" و"سعيد باشا" ،وتذكر أنه في أيام "سعيد" ،كثيراً لجان مختلطة للحكم في قضايا رفعها الأوربيون علي حكومة مصر. وأنه منذ أن ولي "إسماعيل" عرش مصر، وهو يُبدي شديد عدائه للجان التحكيم المختلطة، علي الرغم من أنه قبل الحكم الودي الذي أصدره إمبراطور الفرنسيين ،وأنه بدأت منذ مجيئه هذه الطريقة الغريبة في التسويف والإهمال وهي طريقة في رأيها ،تدعو للأسف لأنها تُبعد الأوربيين، وبالتالي تُفقر مصر. وتنادي الصحيفة بأنه حق الأوربيين أن يرفضوا نقل منازعاتهم إلي القسطنطينية ،ثم تستطرد في عنف قائلة " ولكن هل يمكن الاعتماد علي القسطنطينية أكثر من الاعتماد علي المحاكم المصرية؟ وهل القضاة الأتراك غير قابلين للعزل؟

وهل هم علي استقلال في آرائهم؟ وهل اكتسبوا المعارف الضرورية

التي تطلبها الشعوب المتحضرة من قضاتها ؟ وهل اشتهروا بالتتره عن الفساد ؟.... بكل أسف نري الإجابة واضحةً لا شكَ فيها... إن تركيا في هذه الناحية ما زال ينقصها الشيء الكثير، شأنها في ذلك شأن مصر ذاتها... وإن للخديو في القسطنطينية نفوذًا وعلاقات تجعله كما هو في مصر، خصمًا له خطورته. ولقد بذّر ومازال يُبذّر في أموال تركيا أموال مصر، حتي أضحي في استطاعته أن يشتري كل ذمم أستامبول"

وفي الوقت الذي تقوم فيه "لوبروجريه إچيبسيان" بحملاتها العنيفة ضد إصلاح القضاء وضد القضاء العثماني، نجد صحيفة "إيچيبت" تعدد محاسن المشروع، وتذكر أخبار "نوبار باشا" ونجاح مساعيه في أوربا لدي دولها واقتناعها بفكرة "إسماعيل" في الإصلاح. وأنها ذات فائدة للأجانب أكثر مما هي ذات فائدة للمصريين.

وعندما تعود الترعة الإخبارية إلي "لوبروجريه إچيبسيان" نراها تروي تطور المفاوضات التي يقوم بها "نوبار باشا" في سبيل الإصلاح القضائي، وتذكر زياراته العواصم الأوربية ،وأنه حصل علي موافقة أكثرها وتقول: "إن الحديث يدور حول تأليف لجنة دولية لتأسيس محاكم الإصلاح،إلا أنه لم يتقرر شيء من بعد ذلك".

ثم هي تستقبل "نوبار" أحسن استقبال بعد عودته من مهمته في أوربا، وتسلمه أمام الأمور في مجال نظارة الخارجية بعد أن غاب عنها زمنًا طويلًا. وتذكر أنه يعود إلي هذه النظارة في ظروف دقيقة. ولكنها تؤمل أن يتغلب علي كل الصعوبات التي تقف في طريقه بعد أن أبدي من المهارة واللياقة والثبات في مشروع إصلاح القضاء وتصفه بالأمانة والإخلاص في كل ما يعمله للبلاد والجاليات الأوربية فيها.

منح إسماعيل لقب خديوى ومساعي نوبار باشا

بعد اشتداد الأزمة المالية التي تسبب فيها "إسماعيل" بسبب بذخه وتبذيره ،رأي "إسماعيل" أن الدول الأوربية لم تُسعفه في محنته ،وأنها مازالت تُريد الإبقاء علي الرجل المريض خوفًا من إثارة المسألة الشرقية ،ورأي الناس في مصر يميلون إلي مراسلة السلطان والسلطان لا يرضي إلا بالمال والمالُ عزيز عنده وحرام أن يهديه لمن لا يستحقه، فأرسل وزيره "نوبار باشا" يجس النبض في القسطنطينية.

فوصل إليها في الأسبوع الثالث من مارس ١٨٧٠ ،وذكرت الصحف الفرنسية أن سفر "نوبار" كان حادث الأسبوع. ولم تشر إلي مهمته، ولكنها ذكرت أن آخر رحلة قام بها كانت في سنة ١٨٦٧ ،حيث تمكن من الحصول علي الفرمان الذي منح سمو" "إسماعيل باشا" لقب خديو، وذكرت أن العلاقات بين مصر والباب العالي كانت في أوجها في ذلك الوقت، وأن "فؤاد باشا" هو الصدر الأعظم.

وأتت الأخبار أن السلطان أرسل إلي الخديو علي سبيل الهدية سيفًا فخمًا مرّصعًا بالماس والأحجار الكريمة. وتصف "لوبروجريه إچيبسيان" هذا السيف وتتهكم قائلةً: "إنها تجهل إذا كان له حدان أو حد واحد كما تجهل إذا كان نصله يحمل أو لا هذه العبارة المشهورة من أيام الحروب الصليبية وهي "لا تسحبني بدون لزوم ولا تبيتني بدون شرف"... وتتساءل عن معني إرسال هذا السيف، وهل هو لشكر الخديوي لعدوله عن التسلح ولتخفيضه الضرائب ولاقتصاده في المصروفات العامة، ولقطعه علاقاته مع القواد الأجانب الذين كفُّوا عن الإقامة في القاهرة، أم لشكره علي أنه قدّم الترضيات الكافية إلي القسطنطينية عن كل البنود التي حواها الفرمان الأخير للسلطان.

وصف الصحف الفرنسية لحفلات افتتاح القناة

كان "إسماعيل" قد جاب أوربا بدعوة ملوكها وأباطرتها وأمرائها لحضور حفل افتتاح قنال السويس، وعاد "نوبار باشا" إلي البلاد بعد أن زار العواصم يسّبح بحمده، ويدعو الدول لتأييده في مشروعاتها. وقارب الاستعدادات لحفلات القناة أن تنتهي، ولم ينس "إسماعيل" أن يوجه بشخصه الدعوة للصحافة الأوربية لترسل مندوبيها لحضور هذه الحفلات. وقامت الصحف الفرنسية في مصر بوصف ما تم من استعدادات ،وتُشير بالأبهة والعظمة التي سيكون عليها الحفل ،ونشرت ما أعد من ترتيبات لاستقبال الأباطرة والملوك. واهتمت في كل يوم بذكر أخبار إقامتهم في البلاد ،وما يقومون به من زيارة للآثار القديمة ورحلات في صعيد مصر.

تحول "لوبروچريه إچيبسيان" من الدفاع الي الهجوم كانت "لوبروجريه إچيبسيان" تُناصر "إسماعيل"، وتؤيِّده في فكرة استقلال البلاد، ولكنها تُخالفه في الخطة التي تتبعها للوصول إلي تحقيق هذا الاستقلال.

وعندما قام التراع بينه وبين الباب العالي أخذت بالطبع جانب

"إسماعيل" ،وحملت علي تركيا وصحفها حملات عنيفة ،ودافعت عنه دفاعًا فاقت فيه تلك الصحف الفرنسية التي كانت تنعم برعايته، وتحظي بمنحه وأمواله. وأخذت تذكره في لين أحيانًا وفي كثير من التبكيت واللوم أحيانًا أخري بنبأ غايته وخطأ خطته حتي تدفعه إلي السير في الطريق الذي رأته سليمًا ،وهو الالتجاء إلي الدول الأوربية والسير في ركابها والاستعانة بها علي الرجل المريض أو علي الأقل الاستعداد والتأهل والوقوف معها جنبا الي جنب في انتظار نهاية أجله.ولكنها فوجئت برغبة "إسماعيل" في العودة إلي خطته القديمة، وفوجئت برغبة "إسماعيل" بذهاب وزيره "نوبار" إلي القسطنطينية ،وفوجئت بنجاح هذا الوزير في التمهيد بصفاء الجو بين القطبين، كما فوجئت أكبر المفاجأة بهذا السيف الذي ظهر من مقابلتها له بالتهكم المر والسخرية اللاذعة.

أنها لا تود ل"إسماعيل" أن يعود كما بدأ، ولا تود لمصر ذلك الخراب الذي يأتيها من هذا الطريق. وعندئذ تغيرت لهجتها، وانقلبت من الدفاع إلي الهجوم، وأصابتها نوبة عنيفة من نوبات الحنق والثورة.

نوبار في صحيفة "لوڤارد الكساندري"

وقد رأت هذه الصحيفة أن تتمثل بزميلتيها "لوبروجريه إچيبسيان" و"لاند باندان"، فبدأت حياتها خصيمة الخديو، معاديةً لرجال حكومته ،وحملت في عددها الأول علي وزير الخارجية "نوبار باشا"، الذي يسب الفرنسيين وبحوزتهم، كما اعتاد علي ذلك، ودأب علي احتقارهم، وهي تصفه بأنه ليس سياسيًا ولا يفهم من أمور السياسة شيئا.. وكانت مقالات الصحيفة تُرضي فرنسا وقنصلها والفرنسيين في مصر؛ لأن فرنسا كانت تُعارض في إنشاء المحاكم المختلطة التي يتزعم حركتها "نوبار". ويسعي لإقرارها من دول أوربا.

ترحيب الصحف الفرنسية بتأليف الوزارة الأوربية

وكان مما اقترحته اللجنة الدولية لإصلاح حال المالية المصرية أن يتنازل الخديو عن سلطته المطلقة لوزارة مسئولة، فقبل الخديو ذلك ،وبعث إلي "نوبار باشا" في ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ ، لتأليف الوزارة. وكان من بين أعضائها وزيران أجنبيان ،أحدهما إنجليزي للمالية وهو "سير ڤ رزولسن"، والثاني فرنسي للأشغال وهو "دوبلنيير".

وانتهزت الصحف العربية فرصة تعيين الوزارة الجديدة ،فأخذت تشرح مساوئ العهد القديم وترحب بمقدمها، وهللت الصحف الأجنبية عامة، و"لاجازيت ديتريبونو" خاصة. وعادت تكيل ل"إسماعيل" التهم، وتشّبه العهد الذي سبق تأليف الوزارة بعهود البر برية الأولي.

ومما هو جدير بالذكر أن "لوڤارد الكساندري" مع أنها كانت تذكر الأخبار في صدق ظلت وفية ل"إسماعيل" معه حتي آخر أيامه ،وتدافع عنه دفاعًا يُذكر لها علي مر الأيام، ورضيت الوزارة أن تمنح الصحف بعض الحرية لتنفس عما في صدور الناس والتفهم المآسي التي لقيها الشعب ،غاضة الطرف عما كان يوجّه إليها هي .ولما رأي الخديو الماء يعلو حتي كاد يغرقه، ترك بدوره الصحف تجول وتصول. فربما كان ذلك في إنقاذ ما يمكن إنقاذه. وقد استفادت الصحافة من هذا الموقف العجيب.

سقوط وزارة نوبار باشا

ومع توالي الأحداث واشتداد الأزمة المالية ،ذكرت صحيفة "لوبوسوڤور إچيبسيان" حوادث فبراير سنة ١٨٧٩ ، وهي الحوادث التي أودت بوزارة "نوبار". فقالت الصحيفة :

" في ٩ فبراير ١٨٧٩ ،قرر مجلس الوزراء برئاسة "نوبار باشا" إحالة عدد كبير من الضباط علي الاستيداع. وكان لهؤلاء الضباط مبلغ كبير متجمد من متأخرات رواتبهم وطلبوا من "راتب باشا" وزير الحربية وقتذاك أن تُصرف لهم رواتبهم المتأخرة، وخاصة أنهم قضوا في الخدمة سنينًا طويلة. فقيل لهم أن مجلس الوزراء معني بأمرهم، وظلوا ينتظرون حتي السابع عشر من فبراير نفسه، وفي ذلك الوقت كانت فكرة التمرد تسيطر علي عقول الضباط المُحالين علي الاستيداع. فاجتمع في مساء ذلك اليوم مائة وخمسين منهم في مسجد سيدنا الحسين وقرأوا الفاتحة.

"وفي اليوم التالي، توجه أربعة منهم علي رأس خمسمائة إلي مجلس شوري النواب، حيث اصطحبوا عشرة من النواب إلي وزارة الحربية ،ليؤيدوهم في طلبهم، ويحصلوا علي الموافقة عليه. وسار الموكب علي هذا النحو إلي الوزارة، ولما أصبح علي مسافة تقرب من مائة خطوة منها، شاهدوا "نوبار باشا" في عربته ومعه "كمال بك "المحرر الأول في رئاسة مجلس النظارة، وكانت الساعة قد جاوزت الظهر. وتوقفت العربة عن السير.

وحاول السائق تفاديهم ،فضرب الجياد بشدة ولكنه تلقي في نفس اللحظة ضربة سيف وجهها إليه أحد الضباط،

وأنزل من مكانه وحل محله ضابط. وفي نفس الوقت تجمع جمهور كبير حول "نوبار"، وعلت صرخات الاضطراب والضجيج.

"وقد طلب "لطيف بك سليم" إلي رئيس الوزراء العودة إلي الوزارة ،ودعوة زملائه الوزراء. وفي ذلك الحين أقبل "السير ريفرز ولسن"، فأوقف جمع من الضباط جياد عربته. وأنزلوه منها وأدخلوه في عربة "نوبار باشا".

وأُعيد الاثنان إلي وزارة المالية ووراءهم الثوار حتي مكتب "السير ولسن" الذي يقع في الدور الأول.

وقامت مناقشة حادة بين أحد الضباط و"السير ولسن".

وجه إليه الضابط خلالها إهانات جارحة، وهدده بقبضة يده، وأمسكه من لحيته، وقال له إنه كان من الواجب عليه أن يغمد سيفه في جسده.

"ثم طلب إلي "نوبار باشا" أن يدعو المجلس للانعقاد ،ولما أجاب بأن وزيرين وهما "علي باشا مبارك"، "وراتب باشا" غائبان. طلب منه أن يكتب إليهما خطابين لدعوة انعقاد جلسة عاجلة.

وتسلم الخطابين أحد الضباط وذهب للبحث عنهما.

"ولم تكن خطورة الحوادث قد ترامي نبؤها إلي قصر عابدين، ولكن بمجرد أن علم الخديو أن "السير ولسن" و"نوبار باشا" سجينان في وزارة المالية، توجه إلي الوزارة عن طريق الحدائق. وظهر في شرفة الوزارة. ولما رآه الثوار حيوه في حماس بالغ، وعندئذ وجه إليهم أمره طالبًا التفرق. ولكن لما لم يستمع إليه أحد رأي من الأوفق أن يترل إليهم ليُعيد عليهم أمره. ولكنه وجد نفسه في الحال محوطًا، يمسك الضباط بملابسه طالبين إليه صرف نقودهم.

وأمر "عبد القادر باشا" فرقته بشهر سلاحها ،كي يخلِّص الخديو من المألوف الذي هو فيه، فجرح الضباط الباشا في يده كما جرحوا ثلاث عساكر، واحتلت الفرقة الوزارة عنوة. ولما رأي الضباط ألا فائدة من القتال انسحبوا تاركين عشرة منهم سجناء ومن بينهم لطيف بك سليم.

"وانتشر الخبر في القاهرة بسرعة غريبة. وأصبح الحادث مثار تعليقات مختلفة، واجتمع مجلس الوزراء في قصر عابدين، وانضم إلي الاجتماع قناصل الدول، ولكنه لم يتخذ أي قرار وأُرجئ الاجتماع إلي اليوم التالي.

"وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، أنهي قنصل إنجلترا العام إلي "نوبار باشا" أن هيئة القناصل طلبت من الخديوي ضمانته الشخصية بالمحافظة علي أرواح الأوربيين، ولكن الخديو رد عليهم بقوله: "إنني لا أستطيع عمل شيء ،أو أن أعد بشئ مادام "نوبار باشا" يُدير دفة الأمور". فلما علم رئيس الوزراء بما قال الخديو، قال: "مادام الأمر كذلك فسأقدم استقالتي"، ولما قدَّمها إلي الخديو قبلها علي الفور. وعندئذ أخذ الخديو علي عاتقه أمام ممثلي الدول الأوربية مهمة إعادة الأمن والهدوء.."

والمهم أيضًا في هذه الرواية هو التعليق الذي وضعته الصحيفة عن هذه الحوادث، قالت إن المسألة إذن لم تكن مبدأ مقاومة الوزارة الأوربية، ولكنها كانت لتثبيت مبدأ دفع ما يستحقه كل فرد نتيجة لعمله أو لخدماته، وتستدل علي ذلك بأن وفداً من الضباط المُحالين إلي الاستيداع توجه حوالي الساعة الرابعة إلي قصر عابدين، طالبًا التشرف بالمقابلة الخديوية، وقدم الوفد عريضة ،تقبلها الخديو، وفيها يطلب الضباط المحالون إلي الاستيداع والقوات الموجودة في ثكنات العباسية متأخر رواتبهم، والإفراج في الحال عن "لطيف بك" وزملائه، وإلا ذهبوا هم أنفسهم لإطلاق سراحهم من القلعة، وختموا عريضتهم راجين الخديو أن يذهب بشخصه في اليوم التالي إلي العباسية.

وهكذا استقالت وزارة "نوبار". وتولي "توفيق باشا" ولي العهد رئاسة الوزارة ،وأبقي الوزيرين الأجنبيين ،ولكن الأمور لا تلبث أن تزداد تعقيدا وتستقيل وزارة توفيق، ويؤلف "شريف باشا" الوزارة الوطنية.


Troisième Année — N° 21 | Prix du Numéro : 1 P. T. | Mercredi, 23 Mars 1881

LE COURRIER ÉGYPTIEN

JOURNAL POLITIQUE & LITTÉRAIRE

LE SCRUTIN DE LISTE EN FRANCE

LA MORT DE L'EMPEREUR DE RUSSIE



نوبار باشا بين رد الاعتبار والحقيقية التاريخية

بقلم: رباب محمد سليمان

"نوبار باشا"، شخصية لا يختلف عليها أحد في أنه بذل من جهده وعرقه وحياته في سبيل خدمة الأسرة العلوية ما يُقارب الستين عامًا دون كلل أو ملل، وكان مثالًا للموظف المجتهد المخلص الذي قدّم الغالي والنفيس من أجل رفعة شأن اللواء المصري عاليًا، وله مواقف مشرِّفة داخل البلاط العلوي والتاريخ المصري لا يمكن أن تُمحى من ذاكرة الزمان ،حتى وإن حقد الحاقدون ومكر الواشون، إلا أنه كان دائمًا ثابتًا على مبادئه التي تشربها من خاله "باغوص بك يوسفيان" وزير التجارة الإفرنجية في عهد عزيز مصر "محمد علي باشا".

ورواية الباشا تتناول التاريخ المصري عمومًا والأرمني خاصة في فترة من أزهي فترات الحكم المصري، وهي فترة حكم "محمد علي باشا" ومن خلفه من حكام، وذلك من خلال تسليط الضوء على مجموعة من الموظفين الذين عملوا تحت إمرة "نوبار باشا"، متناولين تاريخ حياته الحافل بالإنجازات التي ساهمت في تغيير شكل السياسة المصرية.

ومؤلف رواية الكاتب والمخرج السينمائي "سمير زكي" المولع بالتاريخ، صدرت له العديد من الروايات معظمها يدور في أجواء تاريخية مثل "كلوت بك" و"رجل ضد الله" و"البنك العثماني" و"مدام خياط"، وتُعد رواية "الباشا" العمل الثاني له عن التاريخ الأرمني بعد عمله الأول "البنك العثماني".

اختار الكاتب تقسيم الرواية إلى سبعة عشر فصلًا، وفي كل فصل عنوان يحمل أسماءً تاريخية ،ولا يقف القارئ على حضور مباشر ل"نوبار باشا" إلا من خلال الحديث عنه علي لسان الشخصيات التي يستدعيها الكاتب.

دارت أحداث القصة بعد مرور ستين عامًا من وجود الأسرة العلوية، تلك الفترة تعد زمنًا للكتابة، فسرد الكاتب أحداثًا روائيةً وقعت بين شخصية "أنيس" الروائية، وأصدقائه التي يحكي فيها عن فترة خدمة "أنيس" لـ"نوبار باشا الأرمنيّ"، من خلالها كَشَفَ عن بعض التفاصيل، والأحداث المرتبطة بالقضية الأرمنية، إلى جانب تناوله فترة حكم



"الخديوي إسماعيل"، فعرض من خلالها حال الأرمن، وعلاقتهم بالسلطة في مصر تلك الآونة، اتخذ منها الكاتب، معبراً لسرد القصة الحقيقية كما سيتضح.

تدور أحداث الرواية حول شخصية "نوبار باشا"، الذي صدر القرار بشأن تصميم تمثال له، وقرر مجموعة من الأصدقاء كتابة مذكرات عن هذا الرجل الذي يستحق التقدير من وجهة نظرهم؛ نظراً لما فعله من أجل مصلحة مصر والمصريين، ومن وجهة نظر البعض الآخر لا يستحق.

تولى "أنيس"، وصديقه "بسيوني" أمر الكتاب، ومن خلال تعرضهم للمعارضين لفكرة الكتاب، تناول الكاتب أموراً تخص الشعب الأرمني، وأسباب المذابح، ووقت المذابح وبعض أحداث الترحيل والتعذيب، كما عرض الكاتب رؤية مختلف الأجناس للشعب الأرمني مثل "لبيب" اليهودي الذي رآهم كالجراد، و"أنيس" المسيحي الذي رأى فيهم الشعب المظلوم ،وقدرهم تقديراً ووفاءً لـ"نوبار" الذي أحبه وأخلص له، و"بسيوني" المسلم الذي تعاطف معهم نظراً لما رآه من مشاهد أفصحت عن أحوالهم.

رحلة البحث عن نوبار

ولاستكمال هذه المذكرات، استمرت رحلة "أنيس" "وبسيوني" في رصد أعمال وإنجازات "نوبار باشا" من خلال مقابلات مع بعض الشخصيات التي نسجها خيال المؤلف ،ولا تظهر سوي مرة واحدة

باستثناء" البارونة يولاند" و"عمال السكة الحديد "الذين خلصوا "بسيوني" ، "أنيس" من أيدي رجال "مهموز باشا" ، وهذه الشخصيات ، نسجها خيال الكاتب استدعاها ، لتخدم هدفه ولا تساهم في صنع وتطور الرواية.

- "جرابيد الأرمني" : من الأرمن الذين ساندوا قومهم حين المذابح ، انشغل بأمور الأرمن في المطرانية ، وبأمور اللاجئين إلى مصر من الأرمن" الأرمني الغارق مع أعوانه في تنظيم جحافل الأرمن الذين لفظهم البحر السكندري إلى شواطئه؛ هربًا من بطش المذابح الحميدية ." (جرابيد) صورة للأرمنيّ الذي تميز بالانتماء إلى قومه.

- "شكران بك" نوبي الأصل مصري التربية ، عمل تُرجمانًا في حرم محمد علي ، وساعد نوبار في تعلم اللغة التركية ، واندمج في رعايته حتي أصبح مقربًا منه :

- "عمال السكة الحديد" : "الأسطي شعبان" : ميكانيكي درجة أولي ، "الأسطي زيان" : كبير أسطوات السكة الحديد ، "عثمان"" رئيس ورش الصيانة ، "سلطان المحولجي" : هو المسئول عن تحويل سير القطارات ، "مرجان" : المسئول عن قطع التذاكر ، "رمان" :المسئول عن تغيير خطوط السكة الحديد والصيانة علي طول الخط... ظهر معدنهم الأصيل في إجهاض اضراب الأجانب وبراعة نوبار في إدارة الأزمة.

- البارونة" يولاند" ، امرأة في منتصف الستينات ،هولندية الأصل استمدت لقبها من زوجها البارون الذي يكبرها بخمسة وعشرين عاما... ساعدها نوبار في استعادة ميراثها بعد تعرضها لمؤامرة من القنصل الفرنسي.

- "أرنون ماسيان" : من الأرمن المصريين "صاحب الخبرة الطويلة في التعامل مع المصريين ، استوطن في هذه البلد منذ نهاية عهد محمد علي ، صنع ثروته جواهرجيّ أصيل ، يفهم في معادن الناس كما يتعامل مع موازين الذهب ." أفصح عن صورة إيجابية للأرمن في مصر ، كما عكس فكرة تبادل المعاملات الطيبة بين الأرمن والمصريين ، واتخذ منه الكاتب رمزًا للبعد الاقتصادي للأرمن في مصر ، وذلك لم يخالف حقائق التاريخ.

- مستر طومسون الإنجليزي- مسيو روجيه الفرنسي- القاضي أورلاندو الإيطالي لسرد موضوع المحاكم المختلطة.

- "البشبيشي الدرويش"... نسجها خيال الكاتب ليسرد لنا واقعة الضباط في عهد الخديو إسماعيل ضد "نوبار باشا" واستقالة "نوبار" بعد هذه الواقعة:

- "أندراوس بك".. تناول مشروع إصلاح أرمينيا الذي قدمه نوبار لمؤتمر برلين عام١٨٧٨ :

- "الأميرالاي عزالدين الشحات" ،ويرصد لنا موضوع البوليس المصري والخلاف مع لويد

- "آراكيل شقيق نوبار" حاكم السودان وتناول دوره في حكم السودان وإرساء العدل بين القبائل السودانية ،وذلك من خلال سرد "أنيس" "الذي رافقه في السودان.

- " جميل بك" : رجل من أصول تركية ، برغم اعترافه بفضل (نوبار) الأرمني في تحديد ساعات العمل في المصالح الحكومية ، ويرى أن هذا هو إنجازه الوحيد ، فقد كره الأمة الأرمنية ، وذمهم

- "مارون العزيزي" : صحفيٌ لبنانيّ الأصل ، مثال للمثقفين العرب الذين اهتموا بالبحث حول القضية الأرمنية" ، اهتم بسيرة (نوبار) الذاتية ؛ لعلها تفيده في بحثه حول القضية الأرمنية.

اعتمد الكاتب على شخصية نوبار" ، كشخصية رئيسة ؛ فرسم من خلاله صورة للشخص الأرمنيّ وعصاميته ؛ ذو الحسب والنسب من خال وأب وأخ : " نوبار كان بالنسبة للبعض عبارة عن فكرة خلاص عند حدوث المجازر الحميدية" ،وصل بسهولة إلى منصب رئيس نظار مصر. كان دوره تجاه أزمة شعبه تخفيفَ الألم بقدر استطاعته " ، لم يبخل بماله في مد جسر الإعانات بين القاهرة والإسكندرية وبورسعيد ، وكل منطقة أخذها اللاجئون ملجأ لهم ، عَمِل على تسكين الأطفال ، والشيوخ ، والحوامل ، والأرامل ، ساعد المطرانية الأرثوذكسية من ماله الخاص ، أخذ الأرمن القادرين على القراءة والكتابة وإجادة اللغات وألحقهم في وظائف حكومية ." ،فخدم "نوبار" القضية الأرمنية ، رجلٌ عادلٌ ، لا يسمح بالظلم ، ذكيٌّ ، تقلّد المناصب ، حد الكثير من الظلم والطغيان ، تقلد المناصب بمصر ، وعاصر سبعة ولاه ، وقام بخدمة المصريين ، حارب السخرة ، لقب بأبي الفلاح" في بداية عمله عمل ترجمانًا في قلم الترجمان ، أول من نظر إلى الشعب المصري الكادح" ، حيث جعل للمصريين مكانتهم وسط الأجانب ، يتسم بقوة الإرادة والحزم والشدة.

وعن الوصف المادي ل "نوبار باشا" كما يصفه "أنيس" : "لقد عرف الباشا وهو ربع القامة ، يميل إلي الطول ، قوي البنية ،أسمر اللون ، أسود العينين ، تقاطيع وجهه متناسقة ، دائمًا ما يُعطي مظهره عكس ما يبطنه عمره ، لكن أن يراه وهو لم يتعد الثامنة عشرة من عمره ، فهذه أول مرة ،كان نحيف الجسم ذا وجه طفولي جميل وشارب خفيف ،العمر مروفات حتي أصبح الباشا ذكري في لوحة

بجانبه وقف شاب أسمر حلو التقاسيم فارع الطول.

وترصد الرواية طريقة تفكير "نوبار" على النحو الآتي: "غير ميال للعنف تماماً بل سلاحه الحديث هو الدبلوماسية والحوار المستمر الهادف، هذا هو سر نجاح "نوبار" في حياته المهنية." و يصف الكاتب "نوبار" بصفات الأرمن كما وردت بالتاريخ، فهم سياسيون محترفون.

وفي مقطع آخر يصف الكاتب "نوبار" قائلًا: "إنه مقتنع أن رحمة الله عليه كان فذاً، متقد الذكاء، واسع الحيلة، يمتلك الحكمة الصائبة، ملك فن الحديث، ذا حسٍ فكاهي راقٍ. في النصين السابقين توغل الكاتب في طريقة تفكير "نوبار"، وهو من الأرمن الذين وصلوا إلى مناصب إدارية في بلاد غير بلادهم، حيث وصل "نوبار" إلى رئاسة مجلس النظار في مصر.

غير أن اهتمام سمير زكي ينصب علي القضية التي يهتم بها في المقام الأول، الأمر الذي جعله يشرك مع هذا الحدث الروائي عدداً من الأحداث الفرعية الأخرى التي تخدم الموضوع.

ومع سير الأحداث وتطورها يتعرض "أنيس" للمطاردة من "مهموز باشا" و"أصيل" شقيق أنيس التوأم الذي عاد إلي مصر بعد فترة من منفاه في السودان علي يد نوبار باشا ،بعد اتهامه بسرقة ملفات من مكتبه .وتعرف علي "مهموز باشا" في السودان، وطلب منه مساعدته في عودته الي مصر، علي أن يقتسم معه الكنز المتمثل في الخنجر الأثري، وانضم إليهما "لبيب أفندي" و"نعيمة" زوجة أنيس التي أرشدتهم عن مكان الألف جنيه الذهبية التي خبأها أنيس أفندي، واستغل "أصيل" الشبه الذي بينه وبين شقيقه وخطف ابنه المعاق علي كرسيه الخشبي المتحرك. وأمام تهديد "أصيل" بإغراق "نوبار الصغير".

اضطر أنيس أن يخبرهم بمكان الخنجر.

-مد يدك يا أخي تحت مقعد نوبار. ستجد ما تريده.

ومد أصيل يده واجدا درجًا خشبيًا سحريًا لا يُلاحظه أحد بالمرة أسفل المقعد، فتحه ببطء حتي سقط منه الخنجر.

-لقد أخذت مرادك الأن ،اترك نوبار.

ورغم ذلك دفع "مهموز" الكرسي الخشبي نحو البحر، ودخل الكرسي في الماء الذي سحب الكرسي و"نوبار" يغرق ببطء.

وبعد معركة اشتبك فيها رجال السكة الحديد الذين توافدوا لينقذوا "أنيس" و"بسيوني" مع رجال "مهموز باشا"، انتهت أن تلقي أنيس ضربة قوية علي أثرها أسلم الروح.

وأثناء مراسم الدفن حدث زلزال رهيب نتج عنه تهدم البيوت علي رءوس الناس ، وأثناء نواحهم علي الجثث المدفونة تحت الأنقاض اهتز تابوت أنيس فجأة من شدة الزلزال إثر تحرك الميت بداخله ،فانفتح نتيجة الاهتزاز العنيف ،وخرجت يد أنيس باحثةً عن منفي لها و، تقمصت الجسد شخصية نوبار عندما سألوه عن اسمه:

-اسمي نوبار

وأثناء إيداع "أنيس" السرايا الصفراء ،وقف "نوبار"(أنيس) وسط أقرانه المجانين ،وفاقدي العقل والمجاذيب، وخطب فيهم قائلا:

"لقد عدت من أجلكم يا شعب مصر.أنا "نوبار" صديقكم وحاميكم وحبيبكم، صدري مفتوح لكل أبناء مصر، كل من لديه مشكلة سأقوم علي حلها، لن يكون هناك محتاج إلا وسيتم تلبية احتياجه لن يكون هناك سائل ،إلا وسيتم الرد عليه بجواب يشفي قلبه، لن أدع أحداً يخدعكم أو يضحك عليكم أو يستغلكم."

اختفي "نوبار" ومن معه من المجانين رغم الحراسة المشددة علي السرايا الصفراء، ووقف "نوبار" أمام تمثال نوبار مقدمًا التحية وحوله مجاذيب الإسكندرية ودراويشها يهتفون باسم "نوبار" وصاح "أنيس" بصوت جهوري:

-لا يهم ما سيكتبه التاريخ ،لا يهم أن تكون معنا أوراق وأقلام من أجل تدوين قصص حواديت الباشا، أنا سأحكي من البداية من هو الباشا أيها الإخوة؟ وماذا فعل ؟وكيف عاش؟ أنا من سأقول لكم كل شيء عن نوبار.

ويختم الكاتب الرواية بهذه العبارة

"وقف المجاذيب أمام تمثال "نوبار باشا" وأسفله، اصطف المجاذيب والدراويش في دائرة يحيون حلقة الذكر قام في وسطهم منشد قوي الصوت يصدح قائلًا:

-مدد يانوبار...مدد....



وكشفت الرواية أن غلبة الجانب الإنساني على شخصية "نوبار" لم يكن أمراً لحظياً أو مرهونًا بموقف بعينه أو شخصية بعينها، بل إن الأمر قائم على اعتقاد راسخ لدى "نوبار" أن دوره الإنساني والمجتمعي أسبق وأقرب إلى نفسه من دوره كوزير أو صاحب سلطة، حتى أن قناعاته كمسئول كانت تنطلق من دوافع إنسانية تغلبت فيها العاطفة على العقل، وهو ما كشف عنه المؤلف.

وكشف الحوار في رواية "الباشا" عن مجموعة من المواقف الأيديولوجية التي ميَّزت شخصية "نوبار" تجاه بعض القضايا والأحداث المحيطة به، حيث تبلورت فيها رؤيته الخاصة التي تتفق بقدر كبير مع المكون التاريخي للشخصية، مع الأخذ في الاعتبار الموقف الإيجابي الذي اتخذه المؤلف من "نوبار" في الرواية، وهو ما تجلى في المشاهد الحوارية التي جمعت بين "أنيس" وباقي شخصيات الرواية.

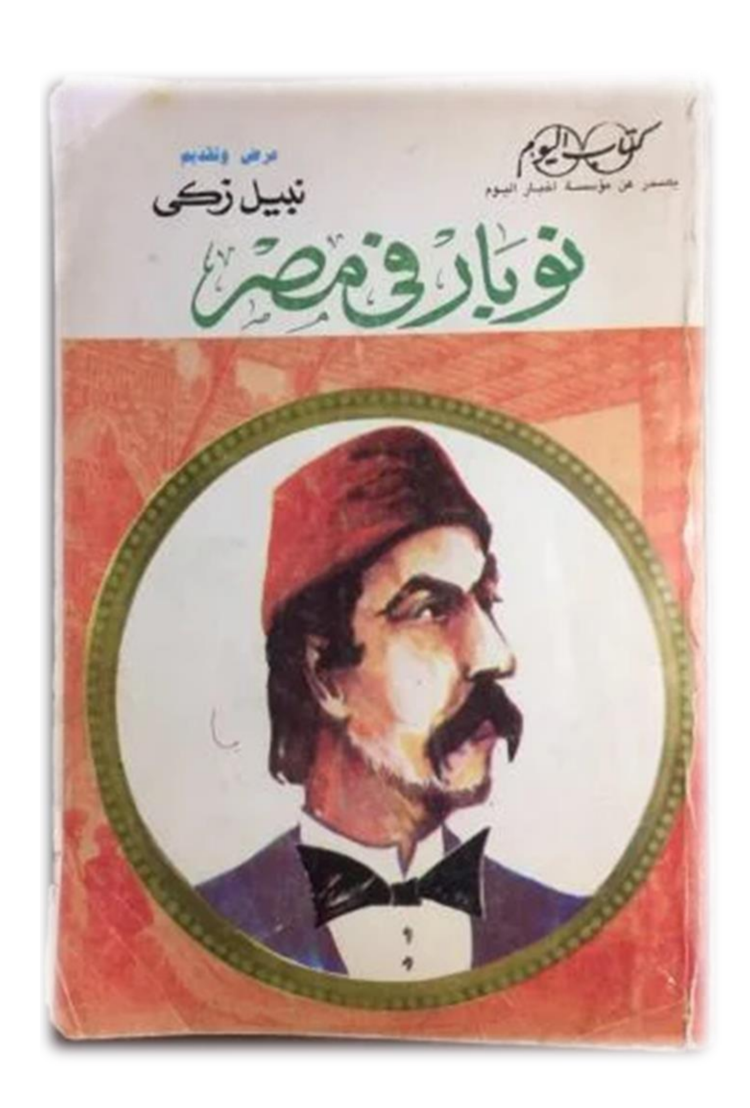
ساق المؤلف في رواية "الباشا" مجموعة من الأحداث التي غزت حياة "نوبار"، والتي كان من شأنها إحداث عدة نقلات محورية في بناء الشخصية، تطور معها الصراع من ناحية؛ وتحولت بموجبها حياة "نوبار" إلى حياة أخرى مليئة بالصراعات المتشعبة، وقد تنوعت الآثار التي خلفتها تلك الأحداث في شخصية نوبار، كما امتدت عبر الإطار الزمني المتسع للفترة التي تعالجها الرواية لتشمل بداية عمل ترجمانًا لمحمد علي حتى وصلت إلى توليه الوزارة الثالثة.

اعتمد الكاتب على الراوي العليم الذي كان يقص الأحداث ويعرض الشخصيات وكأنه على علم بكوامن الشخصيات وتفكيرها، فاستخدم ضمير الغائب في قص الأحداث، ومن خلال تلك الطريقة طرح أفكاراً وآراءً مختلفة حول الشعب الأرمني وقضيته، لكن ما يُلاحظ في رواية الباشا أن سرد الأحداث بعيد إلى حدٍ ما عن عقل المتلقي؛ ذلك لأن " اصطناع ضمير الغائب في السرد يحمي السارد من إثم الكذب يجعله مجرد حاك يحكي، لا مؤلف يؤلف، أو مبدع يبدع، ولقد يتولد عن هذا الاعتبار انفصال النص عن ناصه، وذلك بحكم أنه مجرد وسيط أدبي ينقل للقارئ ما سمعه أو علمه من سوائه." ولكن تلك الطريقة في السرد لن تخلق تعايشاً تامًا بين المتلقي والأحداث، فخلقت مسافة بين المتلقي والأحداث الروائية، بمعنى أن المتلقي لن يصدق حقيقة ما يقص، ويكمن داخله الشك في مصداقية القصة المروية.

وقد حقق السرد علي ألسنة شخصيات الرواية بعض أهدافه في الكشف عن مستوي الشخصيات وفي تحديد طبيعتها إلي حد كبير وعلي نمط تفكيرها، وبوسعنا أن ندخل في أعماق نفسها ونستقرئها ونستمع إلي هواجسها ورغباتها.

وقد نبادر إلى القول بأن رواية "الباشا" تشكل مرحلة جديدة في كتابات سمير زكي الروائية، لأنها حاولت أن تقتحم سرداً روائياً معقداً، يتماهى مع التاريخ والواقع أحياناً بشكل أكثر وضوحاً مما هو في رواياته السابقة. فهو يكاد يستمد مادته من التاريخ المصري الحديث في القرن التاسع عشر، ويركز بالخصوص على مسار شخصية تاريخية هامة، في تلك المرحلة، وهي شخصية "نوبار باشا"

في النهاية، فإن الرواية جديرة بالقراءة؛ لأنها حرَّكت وكشفت عما يختزنه تاريخنا المصري من مخزون غنّي بالحوادث والظواهر الإنسانية التي يمكن للأدباء المصريين أن يوظفوها لإغناء وإثراء كتابتنا السردية غنى وثراء تاريخنا وحضارتنا..



بقلم: أ.د / محمد رفعت الإمام
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة دمنهور

القديس كريكور المنوِّر
تأسيس الكنيسة الأرمنية

تُعد الكنيسة الأرمنية من أقدم المؤسسات الدينية العريقة التي تنتمي إلى عائلة الكنيسة الشرقية من منظور نشأتها وطقوسها وتقاليدها. وقد اتسمت بارتباطها العضوي الوثيق بأرمينية الدولة والأمة والهوية مما أسبغ عليها سمات وطنية وقومية ودينية متفردة.

ورغم التقلبات والانقلابات السياسية والدينية التي مرّت بأرمينية محلياً وإقليمياً، فقد تشبث الأرمن أينما كانوا بوطنهم وقوميتهم وهويتهم لاسيما العقيدة المسيحية والمؤسسة الدينية؛ إذ تقوقعوا بداخلها والتفوا حولها وتضامنوا معها.

ولذا، فلاغرو أن تخطى دور الكنيسة الأرمنية حدودها الطقوسية والرعوية والروحية إلى القيام بدور الدولة وقت المحن في تعبئة الأمة الأرمنية والحفاظ على كيانها سواء داخل الوطن أو خارجه في المهجر. ويكاد يتفق الأرمن أينما تواجدوا على الانتماء والولاء للكنيسة مهما اختلفوا وتباينوا في مذاهبهم وتوجهاتهم.

ولاريب أن هذه المكانة الفريدة للكنيسة لم تنبع من فراغ؛ إذ إنها نتاج تطورات سياسية ومجتمعية ودينية تضرب بجذورها إلى ردح من الزمن في عمق التاريخ الأرمني وتشابكاته الإقليمية.

كما أنها إفراز لجهود حثيثة بذلتها بإخلاص رموز أرمنية وطنية وعلى رأسهم القديس كريكور المنوِّر والملك تريداد الثالث حسبما تُفصله هذه الدراسة الموجزة.

أرمينية الوثنية

اعتنق قدماء الأرمن - شأن كافة شعوب العالم المعمور - معتقدات وثنية بدءاً بعبادة قوى الطبيعة وظواهرها مروراً بعبادة التماثيل وانتهاءً بعبادة التواتم؛ أي الأرواح القادرة على الخلق.

وعشية ظهور المسيحية وانتشارها، تشكّلت المعتقدات الأرمنية من مزيج جمع بين ميراث الأسلاف الأورارديين وتراث الجيران والغزاة لاسيما الفرس والإغريق.

في الابتداء، تأثر الأورارديون - أسلاف الأرمن - (٨٧٠-٥٨٥ ق.م)



بمعتقدات السومريين والآكاديين والآشوريين والبابليين في بلاد ما بين النهرين Mesopotamia (العراق) بحكم حتمية الجوار الجغرافي أحياناً ونتيجة الغزو الاستعماري غالباً. ولذا، فلاغرو أن ضمت المعابد الأوراردية تماثيل لآلهة آشورية وبابلية من قبيل «خالدي» الإله الأكبر وإله الحرب، وكذا، «نانا» أو «ناني» إلهة الحكمة وغيرهما. وقد تكوَّنت الطقوس الدينية الأوراردية من أدعية وتراتيل إلى الآلهة مصحوبة بتقديم قرابين

وعطفاً على الإرث الأوراردي الذي أضحى «محلياً» بمرور الوقت، تُعد بلاد فارس أكبر مُصدِّر للمعتقدات الدينية إلى أرمينية والأرمن. وبينما كانت الأمة الأرمنية تتشكّل منذ سقوط أوراردو، خضعت أراضيها للأسرة الإخمينية التي أسسّت أول إمبراطورية فارسية عظمى منذ عام ٥٥٣ ق.م حتى غزاها الإسكندر الأكبر المقدوني في عام ٣٣١ ق.م.

وآنذاك، وقعت الولاية الأرمنية تحت عباءة الإمبراطورية الفارسية، وتأثرت بأنساقها اللغوية والثقافية والاجتماعية والدينية.

وقد تبنّى الأرمن البنية الاجتماعية الفارسية، وعبدوا مجموعة الآلهة الزرادشتية بأسماء أرمنية من قبيل «أرامازد» Aramazd إله السماء والأرض، «ميهر» Mihr «إله الضوء»، «أسدغيك» Asdghik «إلهة الحب»، «ڤاهاكن» Vahakn «إله الحرب»، «دير» Dir «إله العلوم والفنون». وقد تبوأت الإلهة «أناهيد- Anahid» «أم الشعب الأرمني- موقعاً محورياً في المنظومة العقائدية الأرمنية الفارسية.

ورغم هيمنة الثقافة الفارسية على المشهد الأرمني، فثمة شخصية ثقافية أرمنية وطنية، أخذت تتشكّل تدريجياً متأثرة بتقاليد محلية. ومع أفول الدولة الإخمينية، أخذ الأمراء الأرمن يُؤكدون استقلالهم رويداً رويداً حتى نجح اليرڤانديون (٥٨٥-١٨٩ ق.م) في توحيد معظم أرمينية في إقليم واحد صار بمثابة «وحدة مستقلة ذاتياً» تحت العباءة الفارسية. بيد أن غزو الإسكندر الأكبر للإمبراطورية الفارسية في عام ٣٣١ ق.م قد تمخض عنه امتزاج الثقافة الإغريقية بثقافات الشعوب الشرقية، وتكوين ثقافة هيلينية في آسيا.

وعلى مدار ما يُناهز قرنين من حكم السلوقيين (٣١٢-١٨٩ ق.م)- خلفاء الإسكندر الأكبر- حافظوا على الثقافة والديانة الهيلينية، وبنوا معابد إغريقية الطراز للآلهة اليونانية مثل «أبولو» و«أرتميس» مما أدى إلى انتشار اللغة اليونانية والمعتقدات الدينية الإغريقية في آسيا. بيد أن أرمينية لم تتأثر آنذاك بالهيلينية؛ إذ أن الأمراء اليرڤانديين قد قاوموا السلوقيين مراراً وثاروا ضدهم، وحصلوا على درجة من الحكم الذاتي، ورفضوا الحكام الإغريق، واستطاعوا الاحتفاظ نسبياً باستقلالهم، وشيّدوا مركزاً دينياً في باجران Bagaran شمال يرڤاندشاد- العاصمة السياسية- على الضفة الغربية لنهر آخوريان.

وثمة تحوُلات جذرية قد طرأت على الخريطة السياسية العالمية، وأسهمت في خلق سياسات وإستراتيچيات جديدة. ففي بلاد فارس، نجح البارثيون في تأسيس إمبراطورية (٢٤٩ ق.م-٢٢٤م) نصف فارسية ونصف هيلينية. وفي أوربا، ظهرت الجمهورية الرومانية (٥٠٩ق.م-٢٧م). وفي الهضبة الأرمنية، نجح الأمراء الأرداشيسيون في تأسيس أول مملكة أرمنية (١٨٩ق.م-١٠م).

وبذا، برزت أهمية أرمينية الچيوستراتيچية على مستوى صراع القوى الكبرى. وآنذاك، نظرت الإمبراطورية الفارسية والجمهورية الرومانية إلى المملكة الأرمنية بمثابة دولة ذات سيادة. ولتأكيد هذه الوضعية، شيّد حكام أرمينية الجدد مدينة أرداشات Ardashat على الطراز الهيليني. وجلب أرداشيس تماثيل لمختلف الآلهة الإغريقية والفارسية إلى عاصمته الجديدة من المركز الديني اليرڤاندي في باجاران، ليجعل منها مركزاً دينياً وسياسياً للمملكة الأرمنية.

وخلال حكم الأسرة الأرداشية، ازداد تغلغل الهيلينية في أرمينية. وأصبحت الآلهة الإغريقية المعادلة للآلهة الفارسية- الأرمنية أكثر انتشاراً؛ إذ أصبح زيوس بديلاً عن ميهر، وأرتميس بديلاً عن أناهيد، وهرقل بديلاً عن ڤاهاكن، وأفروديت بديلاً عن أسدغيك، وأبوللو بديلاً عن دير. وقد أحضر كهنة الإغريق عديداً من التماثيل إلى أرمينية.

عند هذا الحد، يُلاحظ أن الأرمن قد اعتنقوا مزيجاً من المعتقدات الزرادشتية الفارسية والوثنية الإغريقية مع بعض المؤثرات الأرمنية قبل اعتناقهم المسيحية. وقد استعار الأرمن معظم المعتقدات والطقوس والآلهة من القوى الإمبراطورية المحيطة بهم. ففي خط متوازٍ مع صعود الإمبراطورية الفارسية، هيمنت معتقداتها على أرمينية. وعندما تراجعت فارس وحلت محلها الثقافة الهيلينية، سيطرت معتقداتها. ورغم السيادة الإغريقية على المعتقدات الأرمنية عشية ظهور المسيحية وانتشارها، فإن الأرمن قد تشبثوا في أنفسهم وكتاباتهم الخاصة بالجوهر الأرمني رغم المظهر الهيليني.

وهكذا، تشبثت أرمينية القديمة بمعتقداتها الوثنية إلى حد الولع قبل اعتناقها المسيحية ديناً رسمياً للأمة والدولة. وقد احتفظ الوجدان الأرمني ببعض المعتقدات والمسميات الوثنية التي تجذّرت وواكبت مسار تكوين الأمة الأرمنية.

المسيحيون الأوائل

بينما كانت المعتقدات الوثنية تتجذّر في البلاد الفارسية والرومانية، أخذت المسيحية تنتشر سراً منذ عام ٣٠م في فلسطين وسورية الخاضعتين لروما. وتدريجياً، أخذ تلاميذ السيد المسيح وحوارييه يذهبون إلى المدن والقرى القريبة والبعيدة داعين أهاليها إلى اعتناق رسالة المحبة والسلام. ورغم وثنية أرمينية، فقد ارتادها اثنان من رُسل المسيح للتبشير برسالته السماوية وهما: تاديوس Traddeus وبارثولوميوس Bartholomeus.

دخل ثاديوس أرمينية عن طريق الرها، وظل يُبشر بالمسيحية ثماني سنوات (٣٧-٤٤م) في مناطقها الجنوبية. وقد دخلها بارثولوميوس عن طريق مقاطعة كوختين بعد تبشيره

في الهند وفارس، وأخذ يُبشر في المناطق الغربية من أرمينية لمدة ١٦ سنة (٤٤-٦٠م). ورغم استشهاد الرسولين آنفيّ الذكر بأمر من الحاكم الأرمني، فقد أسفر نشاطهما التبشيري عن اعتناق المسيحية أعداد ليست بالقليلة من الأرمن لاسيما بعض أميرات الأسرة الحاكمة.

وتدريجياً، تزايد عدد معتنقي الديانة المسيحية بشكل متناثر على امتداد أرمينية. وفي القرن الثاني الميلادي، انتشرت خلايا مسيحية سرية على أياد مبشرين سريان من الرها وقيصرية والقدس في المقاطعات الأرمنية الجنوبية والغربية تحت حماية بعض النبلاء المحليين. وفي القرن الثالث الميلادي، مورست العبادات والشعائر المسيحية في أرمينية بجوار المعتقدات الوثنية رغم أنها كانت لاتزال شبه سرية. وإزاء صعود الوجود المسيحي في أرمينية، اضطهد الحكام الأرمن معتنقي الديانة الجديدة وأذاقوهم شتى صنوف العذابات.

ومن المفارقات، كلما ازدادت الاضطهادات ضد المؤمنين بالمسيحية، ازدادت أعداد معتنقيها في خط متوازٍ مع التحوُّلات الجذرية التي طرأت على أرمينية وعلاقاتها بفارس وروما.

المتغيرات السياسية

عشية الربع الأول من القرن الثالث الميلادي، حلَّت الأسرة الساسانية محل الأسرة البارثية، وأسسَّت إمبراطورية فارسية أكثر قوة. وفي روما، حلَّت الإمبراطورية محل الجمهورية، وصارت مسئولة عن استقرار واستمرار «السلام الروماني».

وفي أرمينية، تأسسَّت الأسرة الأرشاجية كأول أسرة أرمنية ملكية حقيقية حكمت أرمينية ما يُناهز قرنين (٢١٧-٤٢٨م).

بقيام الإمبراطورية الساسانية، تضرَّرت العلاقات السياسية والدينية الأرمنية الفارسية؛ إذ احتفظ الساسانيون بإدارة شديدة المركزية، وتمسَّكوا بكون أرمينية جزءاً من الإمبراطورية الفارسية الإخمينية. وقد تحمَّس الساسانيون بشدة للزرادشتية - الدين الرسمي للإمبراطورية الفارسية - مما أدى إلى اضطهاد الطوائف الدينية الأخرى في أرمينية، واستئصال شأفة الثقافة الهيلينية في فارس وأرمينية. ولذا، أخذت أرمينية تُولى بوجهها شطر روما وحدها من أجل الحماية.

حكم تريداد الثاني (٢١٦-٢٢٥م) أرمينية في مواجهة السياسة الفارسية الجديدة، واصطدم بمحاولات فارس المستميتة لإدماج الأرمن سياسياً ودينياً وعرقياً في كيانها الساساني.

. وقد تعاونت أرمينية مع روما ضد فارس. وعلى مدار حكم خسروڤ الثاني (٢٢٥-٢٤٠م) - خليفة تريداد الثاني - تواصلت المواجهات الدامية بين الإمبراطورية الفارسية والمملكة الارمينية بغية جعل أرمينية ولاية ساسانية زرادشتية. وعندما فشل أرداشير الساساني (٢٢٤-٢٤٠م) في بلوغ مأربه، كلَّف آناك البارثي البلهوي باغتيال خسروڤ. وفعلاً، نجح آناك عام ٢٤٠م في إنجاز هذه المهمة، وقتل الملك الأرمني ومعظم أفراد أسرته.

وقد نجا من هذه المذبحة طفلان، قُدِّر لهما القيام بدور بارز في هداية أرمينية إلى المسيحية وتحويلها من الوثنية إلى الإيمان ورسم مسارها التاريخي وهما: كريكور ابن القاتل وتريداد ابن القتيل.

كريكور وتريداد

ثمة اعتقاد بأن ابن القاتل الناج من القتل قد وُلد في عام ٢٣٩م وسُمِّي أولاً بسورين. وقد نجحت مربيته «سونيا» المسيحية في تهريبه إلى قيصرية عاصمة إقليم قبادوكيا، وقامت بتعميده وإعادة تسميته بكريكور. وقد قام بارميليانوس - أسقف قيصرية - بدور مهم في تنشئة كريكور على العقيدة المسيحية. ولذا، تعمَّق الفتى كريكور في دراسة الكتاب المقدس والاستغراق في قيم المسيحية ومُثلها العليا، وأجاد اللغة اليونانية واستوعب الثقافة الهيلينية، وتعلَّم لغته الأرمنية الأم عن طريق الأرمن المقيمين في قيصرية.

وفي الثانية والعشرين من عمره، وتحديداً في عام ٢٦١م، تزوَّج الشاب كريكور من فتاة مسيحية تُسمَّى مريم داڤيت، وأنجبا طفلين هما: ڤارتانيس (ڤارتان) وأريستاجيس (روساك). وبعد ست سنوات، انفصل الزوجان، وقرَّر كريكور تكريس حياته للتبشير بالمسيحية، وغادر قيصرية. وانعزلت الزوجة مريم مع ابنها الأصغر أريستاجيس في أحد الأديرة، ثم سلَّمته إلى الراهب نيكوماكوس للإشراف على تربيته. وقد تزوَّج الابن الأكبر ڤارتان عندما بلغ سن الرشد.

وبينما كان كريكور يُواصل الاستعداد للتبشير بالمسيحية، كانت حياة الطفل الناج الثاني، تريداد ابن الملك الأرمني القتيل، تسير في الاتجاه المعاكس؛ إذ بعد مقتل الملك، نجح القائد أرداڤازد مانتاجوني في إنقاذ الطفل تريداد وأخته خسروڤيتوخت ،وتهريبهما إلى روما. وهناك، نشأ وترعرع في قصر الكونت ليكيانوس، واستوعب الثقافتين الهيلينية والرومانية، واختصَّ بالأدب والفلسفة، وتدرَّب على الفنون العسكرية. وبذا، نال عطف القياصرة وحبهم لعلمه وشجاعته النادرة التي غدت مضرب الأمثال وحيكت حولها الأساطير؛

إذ كان يُوصف بقوة خارقة تفوق طاقة البشر لاسيما أثناء الحروب الرومانية ضد البرابرة القوطيين.

وفي عام ٢٧٤م، قرّر الإمبراطور الروماني ماركوس أورليانوس (٢٧٠-٢٧٥م) إرسال تريداد على رأس جيش لاسترداد عرش أبيه. وقد مرَّولي العهد الأرمني من قيصرية على الطريق إلى أرمينية. وهناك، انضم إليه بعض الأمراء والجنود الأرمن الهاربين من أرمينية. كما انضم إليه كريكور بن آناك البارثي دون أن يعلم ولي العهد حقيقة أنه ابن قاتل والده. ونظراً لتعدُّد مواهب كريكور، صار أميناً لسر تريداد.

بيد أن محاولة تريداد قد باءت بالفشل. وبعد مرور «١٣» عاماً، وتحديداً في عام ٢٨٧م، نجحت محاولة تريداد الثانية زمن حكم الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) الذي قلَّد ولي العهد الأرمني ملكاً على بلاده بعد أن هزم الساسانيين، وأعاد العرش الأرمني تحت حماية التاج الروماني.

ملك وثني ومستشار مسيحي

نظَّم تريداد الثالث أمور المملكة الأرمنية وعيَّن الوزراء، وجعل منقذه أرداڤازد مانتاجوني قائداً عاماً على جيوشه. وفي هذه المرحلة، غدا الحكيم كريكور بخبرته وسيرته الحميدة مساعد الملك المخلص ومستشاره الأول والوفي في الشئون السياسية.

وبمرور الوقت، ارتفع مقام كريكور في البلاط مما أدى إلى غيرة النبلاء وأعضاء الحاشية، وأخذوا يُردِّدون الإشاعات المتباينة عن أصله وأسرته. وفي نفس الوقت، أدركت الحاشية الملكية أن كريكور مسيحي، ويدعو سراً إلى عقيدته التي كرهها تريداد بشدة. وهكذا، اجتمع النقيضان معاً، الملك الوثني والمستشار المسيحي. وثمة محاولات ضاعت سُدى من كريكور لإقناع الملك بأحقية اتباع الديانة المسيحية باعتبارها عقيدة سماوية. وفي المقابل، ازداد تريداد عداءً إزاء المسيحية وتشبُّثاً بالوثنية معتقد أسلافه.

أوشى خصوم كريكور في البلاط الملكي إلى تريداد الثالث بأن الأول مسيحي، ويدعو سراً إلى عقيدته من وراء ظهر الملك. ولذا، قرَّر الملك اختبار مشاعر مستشاره، فكلَّفه بتقديم القرابين إلى هيكل الإلهة أناهيد، والمشاركة في مراسم الطقوس الوثنية. بيد أن كريكور رفض بشدة الانصياع لأوامر الملك وجاهر بمسيحيته. ولذا، غضب الملك من جسارة هذا المسيحي.

وقد ازداد الأمر سوءاً، عندما أخبر أحد الوشاة الملك بأن كريكور هو ابن قاتل أبيه. ولهذا، استشاط تريداد الثالث غضباً، وأمر باعتقاله وتعذيبه، والزج به في غيابات سراديب سجن «خورفيراب»؛ أي الحفرة العميقة.

اضطهاد المسيحيين

لم يقف الأمر عند سجن كريكور وتعذيبه، بل انتهج الملك الأرمني تريداد الثالث سياسة ملاحقة واضطهاد رعاياه المسيحيين في مملكته على نحو ما فعل أبوه الروحي الإمبراطور دقلديانوس على امتداد فضاء الإمبراطورية الرومانية. وكان تريداد متعصباً متشدِّداً لصالح الوثنية. وقد قاوم المسيحية واضطهد أتباعها، وسعى بكل سلطانه وسلطاته إلى توطيد دعائم الوثنية في جميع أنحاء المملكة الأرمنية.

وتأسيِّساً على هذا، أصدر تريداد الثالث مرسومين ملكيين حرَّم بموجبها اعتناق المسيحية واضطهاد المؤمنين بها بعد أن تزايدت أعدادهم نسبياً في أرمينية. ومما ورد في هذين المرسومين: «من واجبنا احترام الآلهة وتمجيدها، لتنعم علينا بالسلام والخيرات الوفيرة. ولكن المسيحية تُعرقل عبادة آلهتنا. ولذلك تأمر بأن كل أرمني يدل على مسيحي ويُسلِّمه لنا، سيلقى الترحيب والمكافأة من البلاط الأرمني. وإن حاول أحد عدم تسليمه أو إخفائه أو التستُّر عليه، فسوف يُعد خارجاً على الإرادة الملكية ويكون الموت من نصيبه وتُحجز كل أمواله وأملاكه أيضاً.»

وبغية إثارة الرعب والخوف في نفوس الرعية، ذكر الملك في مراسيمه قضية مستشاره كريكور. وفي هذا الشأن، قال: «إنني لم أسامح أمين سر البلاط الوفي الذي كان من أعز أصدقائي وأخلص رعاياي، وأذقته قسوة التعذيب لأنه مسيحي. ثم أمرتُ برميه في خورفيراب ليكون طُعماً للثعابين. إنني لم أجازيه على أفعاله الحسنة حباً وتقديراً لآلهتنا. فمن مصلحتكم البقاء في ظل رعاية الآلهة لتنعموا بخيراتها التي ستُنعم عليكم، وإلا فإن الحكم بالموت ينتظركم».

وقد امتدت الاضطهادات إلى الفتيات الرومانيات المسيحيات اللائي هربن من بطش الإمبراطور دقليديانوس في روما إلى أرمينية وعلى رأسهن كاياني وهريبسيمي. بيد أنهن قد هربن من النار إلى النار. ورغم كثرة الروايات التي ذُكرت حول هذه الفتيات، فإنها تُؤكد حقيقة تشبثهن بالمسيحية وعدم الرضوخ لرغبات الملك الأرمني تريداد الثالث حتى بعد أن عرض الزواج على أجملهن هريبسيمي. ولكن الفتاة المسيحية أبت بعناد شديد الانصياع لطلبه، ورفضت الاقتران بوثني. وبين إصرار الفتاة وإلحاح الملك، اشتاط الأخير غضباً، وأمر بإعدامها مع رفيقاتها اللاتي جئن معها وعددهن «٣٧» فتاة.

اعتناق المسيحية

وبينما كان الملك تريداد الثالث يُلاحق معتنقي المسيحية بكل شراسة وضراوة، فقد ابتُلي بمرض عضال مجهول عجز عن علاجه الأطباء والكهنة. وبمرور الوقت، حسب الروايات الأرمنية، ازداد المرض البدني عليه وصاحبه مرض نفسي جعله يتطبع بسمات الحيوانات لاسيما الخنازير البرية. ولذا، غادر القصر الملكي، وهام في السهول والبراري فاقداً الوعي. وعاش ردحاً من الزمن شاذاً بعيداً عن السلوكيات البشرية. وأخذت صحته تتدهور بشدة حتى كاد أن يُشرف على الهلاك. ومن المفارقات الغريبة، أصاب نفس المرض زُمرة من حاشية الملك عدا شقيقته خسروڤيتوخت التي كانت قد اعتنقت المسيحية سراً، وكانت تتألّم بشدة من أجل مرض أخيها.

وحسب التراث الأرمني، تجلّى ملاك أكثر من مرة في منام خسروڤيتوخت مؤكداً ومكرّراً بأن شفاء أخيها العليل مرهون بالإفراج عن كريكور المسجون في غيابات سراديب خورفيراب منذ ما ينيف على العقد ونصف العقد من الزمان. وفعلاً؛ بخروج كريكور من السجن، وقعت المعجزة وتم شفاء الملك وحاشيته على يديه وعادوا إلى طبيعتهم البشرية.

ويُعد هذا الحدث الرمزي نقطة فارقة في التاريخ العام للشعب الأرمني؛ إذ اقتنع الملك الوثني بوجود إله واحد يجب الإيمان به وعبادته. وفي البداية، أمر المبشّر كريكور الملك وحاشيته بالصوم خمسة أيام، وهو الصوم الذي صار يُعرف بـ «آرتشاڤوراتس باهك»؛ أي أول صوم أمر به كريكور. وعلى مدار شهرين كاملين، أخذ الرجل يُبشّر بتعاليم المسيحية، ويُلقي عظاتها على المؤمنين بها. وشرح بأسلوب بسيط أسرار الخلق والخلاص والعناية الإلهية وغيرها لتكون بمثابة دواء روحي للأرمن لمعافاتهم من أمراض الوثنية، وغرس قيم المسيحية.

وفي خط متواز مع هذه الخطوات، أقام كريكور مزارات تخليداً وتقديساً للفتيات المسيحيات الشهيدات اللاتي أعدمهن الملك تريداد الثالث وعلى رأسهن القديستين هريبسيمي وكاياني. وفي هذا السياق، شيّد كريكور بصحبة الأرمن المسيحيين ثلاثة مزارات؛ أولها في الجبهة الشمالية الشرقية من أرمينية في المكان الذي لقيت فيه هريبسيمي ورفيقاتها الشهادة، وثانيها في جنوب المزار الأول حيث أستُشهدت كاياني وصديقاتها، وثالثها في مزارع الكرمة التي استقرت فيها الفتيات المسيحيات الهاربات من بطش دقلديانوس إلى أرمينية. وهرول الأرمن من جميع الطبقات بتقديم العطور والبخور والأقمشة الحريرية والمذهبة والمطرزة كهدايا للقديسات الشهيدات.

وفي تلك الأثناء، لم تتوقف دروس وعظ كريكور لأبناء جبل أرارات. ورويداً رويداً، أخذ معظم الأرمن معتنقي الديانة الجديدة يبتعدون - نسبياً - عن السلوكيات والعادات والتقاليد الوثنية. وفي خط متواز مع اقتلاع الوثنية من نفوس الأرمن، كان لابد من هدم معابدها وأصنامها وجميع معالمها المادية.

إلغاء الوثنية

وانطلاقاً من هذه المستجدات، أصدر الملك الأرمني تريداد الثالث مرسوماً ملكياً نصّ على إلغاء المعتقدات الوثنية وهدم معابدها، واعتناق مملكة أرمينية دولةً وأمة المسيحيةَ ديانة رسمية للبلاد. وثمة اختلاف بين الروايات التاريخية حول تحديد عام اعتناق أرمينية المسيحية رسمياً؛ إذ تُوجد روايات بأعوام ٢٨٨، ٣٠١، ٣٠٥، ٣١٤، ٣١٥م. بيد أن إجماع عموم الأرمن قد استقر على عام ٣٠١.

في الواقع، لم يكن تنفيذ هذا المرسوم سهلاً وبسيطاً على أرض الواقع؛ إذ أن التقاليد الوثنية كانت متجذّرة في الأرمن منذ رد طويل من الزمن، وتشبثوا بعصبية شديدة في الدفاع عنها. وإضافة إلى هذا، تواجدت خلايا مجوسية (عبدة النار) في المملكة الأرمنية، كانت ذوات تأثير قوي على الرعية والنبلاء.

هنا، استخدمت الإدارة الأرمنية إستراتيجية مزدوجة لنشر الدين الجديد بعد اعتماده عقيدة رسمية للدولة والأمة. ففي المناطق التي رحّبت بالمسيحية، اكتفت الإدارة بإنشاء كنائس وأديرة محل المعابد والأصنام الوثنية، وتعيين أبناء الكهنة الوثنيين بمثابة قساوسة بعد اعتناقهم المسيحية وتعليمهم مبادئها. أما في تلك المناطق التي أبدت مقاومة عنيفة بقيادة الكهنة المجوس ومؤازرة بعض النبلاء الأرمن، فقد لجأت الإدارة إلى استخدام القوة العسكرية بعد نفاد الوسائل السلمية والدبلوماسية وعلى هذه الوتيرة، دمّرت إدارة الملك تريداد الثالث بمعاونة المبشّر كريكور معظم المعابد الوثنية وأصنامها ومقاماتها بدءاً بالآلهة أناهيد ومهرودير مروراً بأرشامين وأرامازد وڤاهاكن وانتهاءً بنانى وأسد غيك وميثرا وعموم الآلهة الوثنية.

وبينما كانت المعابد والأصنام الوثنية تتهاوى الواحد تلو الآخر دون أن تُحرّك ساكناً أمام عيون عابديها القدامى، تعمّقت الديانة الجديدة بمبادئها وقيمها ورموزها إلى حد كبير في نفوس معتنقيها من الأرمن.

وفي كل معبد وثني هدمه كريكور، وضع صليباً تمهيداً لإقامة مؤسسات دينية مسيحية بديلاً عنه.

وقام بتوزيع محتوياته من الفضة والذهب والجواهر الثمينة على الفقراء. وبمرور الوقت، ازدادت أعداد الأرمن المسيحيين، وأمسوا في حاجة ملحة إلى تكريس قيادة دينية وروحية عليا، وكذا، تنظيم كنسي وكهنوتي رفيع المستوى، وتشييد مؤسسات دينية وإدارية وتعليمية مسيحية للقضاء تماماً على فلول الوثنية.

الجاثليق كريكور

قرّر الملك تريداد الثالث إرسال المبشّر كريكور إلى قيصرية لنيل الكهنوت والترسيم على أياد أساقفتها وأكليروسها. وفعلاً، تم الترسيم بواسطة الأسقف غيفونطيوس اليوناني في عام ٢٩٤م. وقد عاد الأسقف كريكور إلى أرمينية بصحبة عدد ليس بالقليل من الكهنة لمساعدته على تعميق العقيدة المسيحية في نفوس رعاياه، وتدشين الكنائس والأديرة، وتنظيم الحياة الجديدة على مبادئ الإنجيل وتعاليمه.

انطلق الأسقف كريكور عقب عودته من قيصرية إلى إقليم دارون الذي كان لا يزال معقلاً للوثنية ومعابدها. وبعد مواجهة عنيفة، نجح الأسقف وأعوانه في هزيمة المجوس الوثنيين، وتحويل معبد ڤاهيڤانيان ذي المذابح الثلاثة للآلهة أناهيد وڤاهاكن وأسدغيك إلى هيكل بإسم الثالوث الأقدس. وبذا، وضع بداية عهد إقامة الكنائس في أرمينية. وأخذ الرجل يتجوّل في هذا الإقليم العنيد لتعميد الناس، وترسيم الكهنة، وتدشين الأديرة والكنائس ومنها كنيسة القديس جرابيد التي جمع فيها الأسقف كريكور رفات القديس يوحنا المعمدان التي جلبها معه من قيصرية. وقد سُميت الكنائس المقامة في إقليم دارون بـ «الكنائس الأم» لأنها كانت باكورة المؤسسات الدينية المسيحية في أرمينية.

ولم يكتف الأسقف كريكور بهذه الخطوات لتثبيت المسيحية واستقرارها في أرمينية، بل شرع مع الملك تريداد في تدشين كاتدرائية رئيسية تكون رمزاً دائماً لأرمينية المسيحية. وفعلاً، تم تشييد كاتدرائية إيتشميادزين العظيمة على أنقاض معبد الإلهة أناهيد في العاصمة ڤاغارشاباد.

وتعني كلمة إيتشميادزين «نزول الابن الوحيد»؛ أي المسيح. وحسب التراث الأرمني، جاءت هذه التسمية نتيجة حُلم رآه كريكور حيث شاهد المسيح قد نزل وبيده مطرقة ذهبية ودلّه على موقع الكنيسة وتفاصيل بنائها. وقد استغرق البناء ستة شهور ونيف بين شهريّ فبراير وأغسطس ٣٠٣م، وقد افتُتحت رسمياً في ١٥ أغسطس ٣٠٣م يوم عيد السيدة العذراء، ولذا، سُميت الكاتدرائية بإسم السيدة العذراء.

وهكذا، أصبحت إيتشميادزين المركز الروحي الأعلى وبؤرة الثقل الديني لعموم الأرمن. وقد احتوت على مجموعة من الأديرة والصوامع والكنائس والمكتبات. وصارت الكاتدرائية مقراً للبطريرك الأرمني؛ أي الكاثوليكوس Catholicos (الجاثليق)، وهو أعلى مركز ديني وروحي لدى الأرمن. وقد عيّن الملك تريداد الثالث الأسقف كريكور بطريركاً أعلى؛ أي جاثليق، ليكون أول رؤساء الكنيسة الأرمنية (٣٠١-٣٢٥م).

المؤسسات الجديدة

وبعد إيتشميادزين، أقام الجاثليق كريكور عدداً من الكنائس والأديرة على امتداد أرمينية. ليس هذا فحسب، بل أعد لها الكهنة والشمامسة والقساوسة والأساقفة. وقد خصّصت السلطات الأرمنية لهذه المؤسسات وتلك الهياكل موارد حياتها ودوامها؛ فأوقف عليها القرى والأراضي والإقطاعيات في جميع ولايات المملكة الأرمنية. وكذا، أوقفت عليها جميع المزايا والامتيازات التي كانت ممنوحة قبلاً لكل من المجوس والوثنيين.

وثمة معضلة جد شائكة قد واجهت الأرمن المؤمنين بالمسيحية حديثاً آنذاك؛ إذ نظراً لعدم وجود أبجدية أرمنية، فلم يُترجم الإنجيل إلى الأرمنية، ولذا، فإن الأغلبية لم تستوعب «كليات عقائد الدين الجديد»، ومارست العقائد على نهج غير صحيح.

ولمجابهة هذه المعضلة، وضع الجاثليق كريكور خطة تعليمية تهذيبية لاجتثاث بقايا الإرث الوثني من العمق الأرمني. بُداءةً، جمع الجاثليق الشباب النابغين من أنحاء البلاد وبينهم أولاد المجوس الذين يُتقنون اللغتين السريانية واليونانية، ووضعهم تحت إشراف رجال دين أكفاء ومهرة. وبمرور الوقت، توسّعت العملية التعليمية لتشمل جميع أبناء شرائح الأرمن حتى تحوّل معظم البسطاء إلى «ورثة الإنجيل» عارفين بالرسل والأنبياء، مدركين «الوصايا الإلهية». أرسلت الإدارة الأرمنية الطلاب الموهوبين إلى قيصرية والرها لاستكمال دراساتهم الدينية والأدبية لاسيما المجيدين منهم للغتين اليونانية والسريانية.

كما أسّس الجاثليق كريكور الرهبنة الأرمنية التي تُعد ركناً أصيلاً في التقاليد الكنسية وإرثها الروحي. ورغم أن أحداً لا ينكر تأثير الرهبنة المصرية على نظيرتها الأرمنية عن طريق بلاد الشام وآسيا الصغرى، فإن الرهبنة الأرمنية قد حافظت على ذاتيتها وميزاتها الفريدة. وربما تأسّس أول دير ببلاد أرارات في عام ١١٢م. ولكن يرجع الفضل إلى الجاثليق كريكور في تنظيم الأديرة وحياة الرهبنة داخل الكنيسة الأرمنية مطلع

القرن الرابع الميلادي.

وحسب شهادة المؤرخ الأرمني أجاثانجيلوس: «وهكذا الفائز أيضاً كريكور زرع كلمة مع الله، وأوقف الكل في ذات المسيح، وعلّمهم وصايا الله خالقهم، وأوقف في كل مدائن أرمينية وضياعها ونواحيها عدة مواضع لبيوت الله». وعيّن مسئولين مختصين على هذه البيوت للحرص على نشر تعاليم الإنجيل وتطبيق حياة الرهبنة.

بدأت الرهبنة في أرمينية «توحُّدية»، ثم تحوّلت إلى «مشتركة». وفي هذا الصدد، كان الجاثليق كريكور ممن مارسوا حياة الرهبنة التوحُّدية. وقد طاف أرمينية، وحرّض شعبها على «الفضائل بعين لا تنام». وكان يختار دوماً سكنه في البراري. وجرياً على اتباع مثلهم الأعلى في الرهبنة، لجأ أرمن - فرادي وجماعات - إلى البراري والجبال والأودية ليُمارسوا مراسم الرهبنة التوحُّدية والمشتركة. ولذا، ناشدهم الجاثليق بالحرص على «نقاوة أرواحهم»، والتشبث بقوانين الرهبنة. وتدريجياً، تحوّلت الأديرة إلى مراكز للتعليم الديني ونشر القيم المسيحية علاوة على ممارسة طقوس الرهبنة.

وهكذا، سنّ الجاثليق كريكور نظام الرهبنة في الكنيسة الأرمنية، وصارت تُسمّى «قوانين القديس كريكور - رسول الأرمن» التي تتكوّن من «٣٠» قانوناً ركزت أغلبها على مسائل التوبة والكهنوت وخطايا الحياة الزوجية وحفظ يوم الأحد يوماً مقدساً ومعاقبة السحرة والمشعوذين.

وثمة كتاب بتوقيع الجاثليق كريكور يُسمّى «هاجاخادوم»؛ اشتمل على «٢٣» خطبة طويلة ترسم سلوكيات وممارسات «المسيحي الصالح» وغيرها من المسائل العقيدية. وعلى الأرجح أن هذه الخُطب قد كُتبت بداية باليونانية ثم تُرجمت إلى الأرمنية في القرن الخامس الميلادي.

لوساڤوريتس

وبعد أن أنجز الجاثليق كريكور مهامه الدينية والتنظيمية على أكمل وجه، عرض عليه تريداد الثالث الإقامة في القصر الملكي. بيد أنه آثر الاعتكاف والتنسُّك في غار يقع على جبل سيبوه.

وفي تلك الأثناء، أخبر العارفون بسيرة ومسيرة كريكور الملك الأرمني بوجود ولدين للجاثليق وهما: ڤارتانيس وأريستاجيس. وقد نجح الملك في إقناعهما أن يُغادرا قيصرية إلى أرمينية. ولما كان أريستاجيس يتمتع بسمات روحية وإدارية متميِّزة، فقد طلب الملك من الجاثليق أن يُرسِّمه أسقفاً. ومن ثم، غدا الأسقف أريستاجيس مساعداً ونائباً للكرسي الجاثليقي.

وقد اعتاد الجاثليق كريكور أن يُغادر غار عزلته الروحية ليتجول مع ابنه ومساعده الأسقف أريستاجيس وطلابهما بين الناس ليُشجِّعهم ويُثبتهم على التشبث بالمسيحية وقيمها. وقد فوّض الملك تريداد الثالث والجاثليق كريكور الأسقف أريستاجيس ليُمثلهما في مجمع نيقية - أول المجامع الدينية - المنعقد يوم ١٩ يونية ٣٢٥م. وقد اعترفت السلطات الزمنية والدينية بقرارات هذا المجمع التي أُطلق عليها «دستور الإيمان النيقى»، وبموجبه تحدّدت الطقوس الدينية للكنيسة الأرمنية.

في تلك الأثناء، وحسب المؤرخ أجاثانجيلوس، كان الجاثليق كريكور «لا ينام ولا يرتاح إلى أن قدّم إليه الرب الراحة الأبدية». وقد تنيّح في وحدته وعزلته الروحية عام ٣٢٦م، وخلفه على الكرسي الجاثليقي ابنه ومساعده ونائبه الأسقف أريستاجيس (٣٢٥-٣٣٣م).

ومنذ نياحة الجاثليق القديس كريكور، تبوأ مكاناً علياً في الوجدان الجمعي للأرمن؛ إذ غدا أبرز قديسيهم وشفيعهم. وتحتفل الكنيسة الأرمنية بذكراه ثلاث مرات سنوياً: أولها عيد دخوله خورفيراب، وثانيها عيد خروجه من خورفيراب، وثالثها عيد اكتشاف رفاته.

ونظراً لدور الجاثليق القديس كريكور المحوري في التاريخ الأرمني العام والكنيسة في القلب منه، فقد أُطلق عليه لقب «لوساڤوريتش» Losavourtich؛ أي المنوِّر، ونُسبت إليه الكنائس الأرمنية جمعاء (أرثوذكسية، كاثوليكية، بروتستانية)، وصارت تُسمّى بـ «الكنيسة الكريكورية» (الجريجورية).

وهكذا، نجح قداسة الجاثليق كريكور بمؤازرة مباشرة من الملك تريداد الثالث في القيام بنقلة نوعية في حياة الشعب الأرمني من عبادة الأوثان والنيران إلى اعتناق ديانة الإيمان؛ المسيحية.

ولا غرو أن أطلق العقل الجمعي الأرمنى على القديس كريكور «منوِّر النفوس»، وعلى الملك تريداد الثالث «المراقب المستنير»؛ إذ أن ثمة تفاهم وتناغم وتكامل بين السلطتين السياسية والدينية، وسم الكنيسة الأرمنية بطابعيها الوطني والقومي.

ويفخر الأرمن أينما كانوا بأنهم أول دولة وأمة اعتنقت المسيحية ديانة رسمية في العالم عام ٣٠١م. وفي هذا الصدد، سبقت المملكة الأرمنية الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) التي ألغت الوثنية واعتنقت المسيحية رسمياً ديناً لها في عام ٣٨١م.

كما سبقت الدول والشعوب التي انبثقت عن الإمبراطورية الرومانية الغربية من قبيل فرنسا (٤٩٦م) وإنجلترا (٦٠٥م) وألمانيا (٨٠٥م). وكذا، يفخر الأرمن بدورهم في نشر المسيحية بين جيرانهم من أمثال إقليميّ إيبريا وألبانيا القوقازية (جورجيا وبلاد الأغوان). ورغم افتخارهم بهذه الخطوة، ففي الواقع، نجح الأرمن في إقامة حائط صد وسياج مسيحي ضد الطغيان الفارسي الزرادشتي.

وهكذا، يُعد اعتناق أرمينية المسيحية رسمياً بواسطة القديس كريكور المنوِّر والملك تريداد الثالث من أبرز العلامات الفارقة في التاريخ العام للشعب الأرمني؛ إذ بموجب هذه العقيدة تخلت أرمينية عن تقاليدها الفارسية، وتمخض عنها انبثاق شخصية متميِّزة لـ «مسيحية» أصبحت جزءاً لا يتجزأ من «الهوية الأرمنية» داخل البلاد وخارجها.

ولاريب أن هذه الخطوة المفصلية قد نجمت عن ضغوطات خارجية هدَّدت هوية أرمينية لاسيما من بلاد فارس الساسانية الزرادشتية مما أعطى المملكة الأرمنية حافزاً على توحيد الأمة وراء المسيحية. ورغم أن الوثنية ظلت تُؤثر وتُقاوم ردحاً من الزمن، فقد اعتنقت أرمينية المسيحية، وتبوأت الكنيسة موقعاً محورياً في الكيانات الأرمنية، وأسهمت بامتياز في خلق هوية متفردة وسمة مميِّزة للشخصية الأرمنية.





مئوية وزارة الشعب

بقلـــم د. هشام ابراهيم على
دكتوراه فى التاريخ الحديث والمعاصر جامعة المنوفية

شهد هذا العام مرور المئوية الأولى على وزارة الشعب ، والتي تألفت في الثامن والعشرين من يناير من عام ١٩٢٤م برئاسة زعيم الأمة سعد زغلول.

تلك الوزارة التي كانت أحد مكتسبات أو انجازات ثورة ١٩١٩م العظيمة ، والتي كان على رأس مطالبها وشعاراتها ضرورة اشراك الشعب في الحكم ، فكانت وزارة الشعب نتاج مخاض ثورة ١٩١٩م.

وجاء تشكيل الوزارة في ظرف تاريخي بالغ الخصوصية عقب ثورة ١٩١٩م وما صاحبها من أحداث نفي قائد الثورة وملهمها سعد زغلول ورفاقه لجزيرة مالطة ، ثم افراج السلطات البريطانية عنهم وسفرهم لمؤتمر الصلح في باريس لعرض قضية مصر أمام المؤتمر ، ولكن قوى الاستعمار وقفت عقبة دون ذلك .

وكان الاستقلال النسبي الذي منحته بريطانيا لمصر من خلال تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢م ، ذلك التصريح الذي اصدرته بريطانيا من جانب واحد ويقضي بإنهاء الحماية البريطانية على مصر ، وأن مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، بينما احتفظت بريطانيا لنفسها بأربعة شروط ، وهي حقها في تأمين مواصلاتها لامبراطوريتها ، وأيضا حقها في حماية الأقليات والدفاع عن مصر ضد أية تدخل اجنبي ، على أن يستمر الوضع في السودان كما هو دون أدنى تغيير.

هذا الاستقلال وإن كان استقلالاً منقوصاً ، ولكنه كان خطوة هامة نحو استقلال مصر التام والكامل .

وجاء دستور ١٩٢٣م والذي يعد من أعرق الدساتير التي مرت على تاريخ البلاد بشهادة فقهاء الدستور ، الأمر الذي دفع البعض منهم للمطالبة عقب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م بإعادة تفعيله بعد اجراء بعض التعديلات عليه بما يتماشى مع المرحلة الجديدة .

وبموجب الدستور أجريت في الثاني عشر من يناير ١٩٢٤م أول انتخابات برلمانية حقيقية ، حصل فيها الوفد على نسبة



تزيد عن تسعين فى المائة من مقاعد البرلمان .

هذه الاغلبية التي مكنت زعيم الوفد سعد زغلول من تشكيل الوزارة والتي خرجت للمرة الأولى من رحم الشعب معبرة عن آماله وطموحاته ، فحملت وصف وزارة الشعب ، وبلغ عدد أعضائها ثلاثة عشر وزيراً ، أحتفظ فيها سعد زغلول بجانب رئاسته للوزارة بكرسي وزارة الداخلية .

وزارة الشعب رغم قصر فترة عملها لأقل من عشرة أشهر ، إلا أنها كانت لها بصمتها الواضحة ، حيث أفرجت عن سائر الثوار الصادر بحقهم أحكام من المحاكم العسكرية البريطانية على خلفية ثورة ١٩١٩م

وفى الوقت ذاته حذفت الاعتماد المخصص لنفقات جيش الاحتلال البريطاني من ميزانية الدولة ، وهو أمر كان مثيراً للاستفزاز ، كما يحسب للوزارة رغم وجود معارضة ضدها مثلما هو حال الطبيعة البشرية بانتفاء خاصية الإجماع ، فلم تغلق أو تصادر أية مطبوعة صحفية فى عهد تلك الوزارة .

أما اختبار الوزارة الحقيقي فكان مفاوضاتها الشرسة مع الحكومة البريطانية والمسماة بمفاوضات سعد - ماكدونالد ، والتي طالب فيها سعد زغلول بسحب سائر القوات البريطانية من مصر ،

مع رحيل المستشار المالي والقضائي البريطاني ، على أن تتنازل بريطانيا عن دعوى تأميم قناة السويس ، وكان طبيعياً فشل التفاوض فى ظل تمسك الحكومة المصرية بشروطها ، وفى المقابل الاسد البريطاني كان فى تلك الفترة فى أوج قوة إمبراطورتيه التي لا تغيب عنها الشمس .

مهما يكن فإنه يمكن القول هنا أن ثورة ١٩١٩ م التي كان أهم ثمارها وزارة الشعب ، تعد بمثابة البداية أو الخطوة الأولى نحو استقلال البلاد التام ، فثورة ١٩١٩ م وإن لم تحقق الاستقلال والديمقراطية بشكل سريع ولكنها استطاعت تغيير موازيين القوى داخل المجتمع ، وذلك بإدخال الشعب فى معادلة المصالح مع القوى الشرعية الممثلة في الملك والقوى الفعلية الممثلة في الانجليز .

والشعب تلك المرة لم يكن من القوى التقليدية المعروفة من الأعيان وأصحاب الثروة التقليديين ، بل من الفلاحين والعمال وصغار الموظفين والطلبة وغيرهم .

إلا أن روح التغيير تلك وجدت مقاومة من بعض القوى التقليدية والتي كانت تجد مصالحها فى صداقتها وعلاقتها مع الانجليز ، وهو أمراً يبدو طبيعياً وموجود في كل عصر وزمان .

ورغم هذا فإن الشعب دوماً لابد أن يكون حاضراً وطرفاً في أية معادلة وغير بعيد عن المشهد ، وبالتالي فرياح التغيير هذه قد فتحت الطريق نحو استقلال البلاد التام فيما بعد .

وشهد التاسع عشر من نوفمبر ١٩٢٤ م الفصل الأخير فى حياة وزارة الشعب ، وذلك عقب مقتل السيرلي ستاك سيردار الجيش المصري وحاكم السودان ، والذي على إثره شنت الحكومة البريطانية حملة شرسة ضد سعد وحكومته ، فحملتهم مسئولية الحادثة بتأجيج المشاعر الوطنية ضد دولة بريطانيا العظمى ، ممارسة فى ذلك ضغوط رهيبة ضد الحكومة خاصة عقب فشل مفاوضات سعد – ماكدونالد ، حيث طالبت بضرورة سحب القوات المصرية من السودان ، على أن يتم الابقاء على المستشار المالي والقضائي البريطاني في مصر .

إلا أن وزارة الشعب أبت دون تنفيذ تلك الضغوط والتهديدات التي تمس الكرامة والسيادة المصرية ، مفضلة الاستقالة ومغادرة موقعها على الرضوخ لتلك التهديدات .

وهذا الأمر يعطي الدرس لكافة الاجيال الحاضرة والقادمة بأن عزة وكرامة الوطن فوق كل اعتبار ، بما يجعلنا نعتز ونفتخر بمصريتنا ووطننا مصر ، فمصر دولة عريقة ومحورية في المنطقة ، دولة حضارة سبعة آلاف عام ، كرمها الله عزوجل بذكرها في القرآن ، حيث قال في قرآنه الكريم " ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين " كما وصف نبيه محمد (ص) شعبها بأنهم خير أجناد الأرض ، ودعا لهم بأن يكونوا في رباط إلى يوم الدين .



أرمينيا والأرمن

بقلم: رباب محمد سليمان

وداعا ڤاهان تلبيان

توفي الفنان التشكيلي "فاهان تلبيان"، الذي وافته المنية، يوم ١٧ الخميس أكتوبر ٢٠٢٤، عن عمر يناهز ٦١ عامًا، وقد نعاه وزير الثقافة الدكتور أحمد فؤاد هنو قائلًا تلبيان": ڤاهان تلبيان نحات صاحب بصمة متفردة"

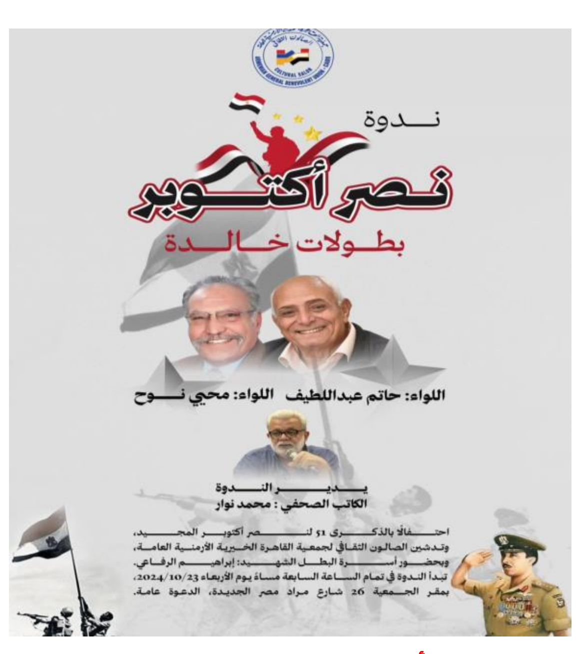
ولد الفنان المصري ذو الأصول الأرمنية "ڤاهان تلبيان" في ٢٠ أكتوبر ١٩٦٣، وحصل على بكالوريوس تربية فنية، تخصص نحت، من جامعة حلوان عام ١٩٨٨، وكان عضواً نشطًا في نقابة الفنانين التشكيليين، وحصل على العديد من الجوائز والتقديرات، من بينها: "جائزة صالون الشباب السادس عام ١٩٩٤، جائزة ثانية من صالون الشباب التاسع عام ١٩٩٧".



نايري همبيكيان وحلم إحياء منطقة «درب اللبانة»

كتب الصحفي شهاب طارق عن المعمارية الأرمنية المصرية نايري هامبيكيان عن حلم إحياء منطقة «درب اللبانة» وإعادة المجد للقاهرة التاريخية ورحلتها مع الترميم. وأيضًا على جذورها الأرمينية، وعن ذكرياتها وأصدقائها القدامى والتحولات التي عاشتها داخل مدينة القاهرة، في المقال المنشور في جريدة أخبار الأدب الصادرة يوم ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٤.





الصالون الثقافي الأول

في إطار احتفالات الدولة والشعب المصري، بالذكري الحادية والخمسين لنصر أكتوبر المجيد، افتتح الأستاذ الدكتور جورج نوبار، رئيس مجلس إدارة جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة، يرافقه أبطال حرب أكتوبر اللواء محيي نوح واللواء حاتم عبد اللطيف، وأسرة البطل الشهيد إبراهيم الرفاعي، في تمام الساعة السادسة مساء الأربعاء ٢٣ أكتوبر، بقاعة ساتنيج شاكر بمقر الجمعية ٢٦ شارع مراد مصر الجديدة، الصالون الثقافي للجمعية.

وقدد افتتح الصالون بمعرض يضم مجموعة رسوم كاريكاتيرية نادرة عن نصر أكتوبر، تُعرض في معرض عام لأول مرة، تتناول الفترة من ١٩٦٧ إلى نصر أكتوبر ١٩٧٣، بريشة رائد الكاريكاتير السياسي المصري والعربي في القرن العشرين الفنان المصري ذي الأصول الأرمنية: ألكسندر صاروخان (١٨٩٨-١٩٧٧)، تنظمه الجمعية، بالتعاون مع مشروع ذاكرة الكاريكاتير لمؤسسه الباحث عبد الله الصاوي، وأسرة صاروخان وأشار الدكتور جورج نوبار، أن الصالون الثقافي، هو استكمالًا للمجهودات والنجاحات الكبيرة، التي قدمتها مجالس الإدارات المتعاقبة للجمعية برئاسة

الأب الروحي للجمعية الأستاذ برج تريزيان، والدكتور فيكن جيزمجيان -رحمه الله-، والأستاذ: أونيك بلكدانيان -رحمه الله-. ويهدف الصالون إلى فتح آفاق جديدة من التعاون بين الجمعية والوسط الثقافي المصري، حيث تقدم الجمعية التي تأسست في عام ١٩٠٦، العديد من الأنشطة والفعاليات الثقافية على مدار العام، حيث أصدرت خلال العشرة أعوام الأخيرة العديد من الكتب التي تهتم بالشأن الثقافي والفني المصري الأرمني، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: الأرمن في مصر، صاروخان.. البدايات المجهولة ٢٠١٩، موسوعة الأرمن في الصحافة العربية، صاروخان.. بورتريهات الإسكندرية ٢٠٢٣، نوبار باشا خادم مصر الكبير ٢٠٢٤، وجميع إصدارات الجمعية يتم توزيعها بالمجان.

وتابع الدكتور جورج نوبار، لقد قررت الجمعية على أن يكون إنطلاق الصالون خلال شهر أكتوبر؛ من أجل الاحتفال بالذكرى الحادية والخمسين لنصر أكتوبر المجيد، النصر الأغلى لكل مصري وعربي في العصر الحديث.

تدشين كتاب «أرمينيا بعيون كويتية» للأستاذ كامل العبد الجليل في الكويت



في ٢٤ اكتوبر أُقيمت فعالية ثقافية في مركز اليرموك الثقافي من تنظيم دار الآثار الإسلامية على شرف سعادة سفير أرمينيا السيد سارمين باغداساريان والسيدة عقيلته، وتضمنت الفعالية حفل تدشين كتاب «أرمينيا بعيون كويتية» للأستاذ كامل العبد الجليل، الأمين العام السابق للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب تلتها أمسية موسيقية من تقديم الجمعية الثقافية والتعليمية الأرمنية "هامازكاين".

سيريناد نبيل مع أندريسيان وبابويان

في ٢٦ أكتوبر ٢٠٢٤ التقت السفيرة سيريناد جميل، سفيرة جمهورية مصر العربية لدى يريفان، بالسيدة ﭼانا أندريسيان، وزيرة التعليم والعلوم والثقافة والرياضة لجمهورية أرمينيا، حيث وتم مناقشة تطوير التعاون في مجال الثقافة والعلوم والشباب والرياضة، تنفيذاً لمذكرة التفاهم بين البلدين التي تم التوقيع عليها خلال الزيارة التي أجراها السيد رئيس الجمهورية إلى أرمينيا في يناير ٢٠٢٣، كما التقت بالسيد ﭽيفورج بابويان، وزير الاقتصاد بجمهورية أرمينيا لبحث التعاون بين البلدين

أراكيليان في منتدي القاهرة

شاركت السيدة آنا أراكيليان، الأمين العام لبلدية "خوي" بمحافظة أرماڤير بجمهورية أرمينيا، في الدورة الثانية عشرة للمنتدى الحضري العالمي الذي عقد في القاهرة في الفترة من ٤ إلى ٨ نوفمبر.

كورال الأرمن

نظمت الجالية الأرمنية في مصر يوم الجمعة ٨ نوفمبر ٢٠٢٤ حفلًا موسيقيًا وغنائيًا للكورال الأرمني بمركز "الجزويت الثقافي" بالإسكندرية.

مذكرات تفاهم للتعاون المشترك بين مصر والإمارات وأرمينيا

أقام مركز الإمارات للسياسات، مساء يوم الأحد، الموافق ١٠ نوفمبر ٢٠٢٤، حفلَ توقيع مذكرات تفاهم مع كلية الدفاع الوطني بدولة الإمارات، ومركزي تفكير وبحث من مصر وأرمينيا، هما مركز أوربيلي للمعلومات والتحليلات (OIAC) التابع لمكتب رئيس وزراء جمهورية أرمينيا، ومركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار برئاسة مجلس الوزراء بجمهورية مصر العربية، وجاء توقيع مذكرات التفاهم في فندق قصر الإمارات، عشية انطلاق ملتقى أبوظبي الاستراتيجي الحادي عشر، الذي يعقد هذا العام تحت عنوان «وهم الاستقرار: عالم في اضطراب»

ساركيسيان سفيراً لأرمينا بالقاهرة



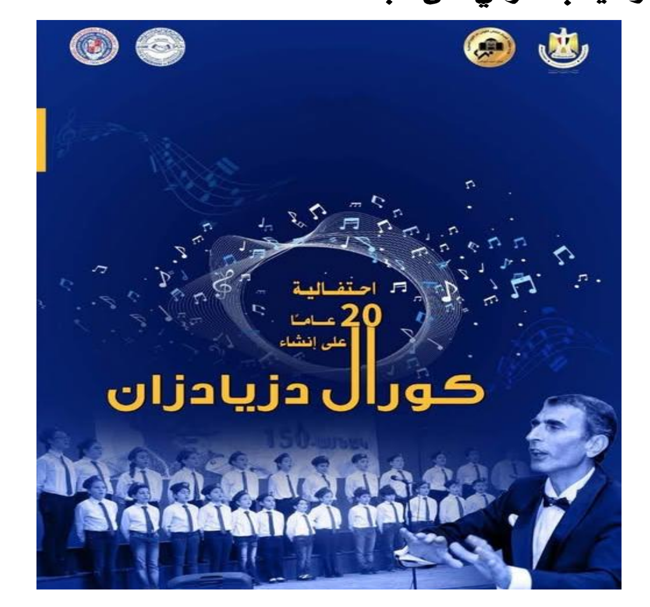
في ١٥ نوفمبر ٢٠٢٤ قام سفير أرمينيا الجديد بالقاهرة أرمين ساركيسيان، بتقديم نسخة من أوراق اعتماده إلى مساعد وزير الخارجية لشئون المراسم السفير هيثم صلاح.

٢٠ عامًا علي تأسيس كورال دزيادزان

احتفلت "جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة"، بمرور عشرين عامًا على تأسيس كورال دزيادزان، في تمام الساعة الثامنة مساء الأحد ٨ ديسمبر ٢٠٢٤، بالمسرح الصغير بدار الأوبرا. أسس كورال دزيادزان المايسترو: مهران غازليان وحرمه السيدة: كوهار غازليان في عام ٢٠٠٤، بدعم ورعاية من جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة، بهدف دعم وتنمية مواهب أطفال الطائفة الأرمنية بمصر، وربطهم بالأغاني التراثية الأرمنية، وبسبب التنوع ما بين الأطفال وما سيقدمونه من أغاني، والذي يشبه تنوع ألوان قوس قزح، وحتى تكون حياتهم مفرحة ومليئة بالألوان المبهجة، فقد تم اختيار اسم دزيادزان، ومعناها بالأرمنية قوس قزح .

بدأ برنامج الحفل بعزف السلام الجمهوري لجمهورية مصر العربية وجمهورية أرمينيا، ثم كلمة للدكتور: جورج نوبار رئيس الجمعية، وتم عرض فيلم تسجيلي قصير عن تاريخ الكورال وأهم المحطات خلال العشرين عامًا الماضية. المقرر أن وشدا الكورال بعشرين أغنية بأربعة لغات العربية والأرمنية والإنجليزية والإيطالية. تضمنت الفقرة الأولى للكورال ١٠ أغاني منوعة، ثم ١٠ أغاني أخرى، كما اهتم الحفل بتكريم المايسترو: مهران غازليان والسيدة حرمه؛ ومنحهم درع الجمعية عرفانًا وتقديرًا من الجمعية لما بذلوه من جهد مع الكورال على مدار العشرين عامًا الماضية.

وصرح: الدكتور جورج نوبار رئيس مجلس إدارة جمعية القاهرة الخيرية الأرمنية العامة، بأن الحفل يأتي في إطار ما تقدمه الجمعية من دعم كامل للموهوبين والمتميزين من أبناء الطائفة الأرمنية بمصر في شتى المجالات.



لقاء ساركسيان ووائل حامد

فى ٢٣ ديسمبر ٢٠٢٤ التقى سفير أرمينيا الجديد بالقاهرة" أرمين ساركيسيان"، يوم الإثنين، مع السفير وائل حامد مساعد وزير الخارجية للشئون الأوروبية، وذلك بمقر وزارة الخارجية المصرية، وناقش الجانبان خلال الاجتماع، سبل تعميق العلاقات الثنائية الأرمينية – المصرية، وتطرقا إلى الأعمال الرامية لزيادة مستوى الزيارات المتبادلة للوفود رفيعة المستوى.

صابر يشهد احتفال الأرمن الكاثوليك بعيد الميلاد

فى ٢٤ ديسمبر ٢٠٢٤ شهد الدكتور إبراهيم محافظ القاهرة احتفال بطريركية الأرمن الكاثوليك بعيد ميلاد السيد المسيح برئاسة المطران "كريكور أوغسطينوس كوسا" أسقف الإسكندرية للأرمن الكاثوليك، نائبًا عن الدكتور "مصطفى مدبولى" رئيس مجلس الوزراء، وذلك بكنيسة القديسة تريزا الطفل يسوع بمصر الجديدة.

ساركسيان في الإسكندرية

في إطار زيارة العمل إلى الإسكندرية، في ٢٩ ديسمبر ٢٠٢٤، التقى أرمين سركيسيان سفير ارمينيا بمحافظ الإسكندرية أحمد خالد حسن سعيد .

كما التقى سفير أرمينيا مع رئيس غرفة تجارة الإسكندرية أحمد فاكيل وشارك في الاجتماع حوالي ١٥ رجل أعمال وتمت مناقشة القضايا المتعلقة بتوسيع وتعميق العلاقات التجارية والاقتصادية بين أرمينيا ومحافظة الإسكندرية، مع الأخذ في الاعتبار الإمكانيات اللوجستية للإسكندرية. كما زار أرمين سركيسيان مكتبة الإسكندرية وكنيسة "الحبل بلا دنس" للأرمن الكاثوليك، وشارك في القداس في كنيسة "بولس بطرس" الأرمنية الرسولية بالإسكندرية.

بـــكـــــلام قـــالــــه

بـــكـــــلام قـــالــــه
مــن قــبــل حــين
ســـاعـــات فــرحـــان
وســـاعـــات حــزيـــن
وساعات شايل هم السنين
حِـكَـم وخـبـرة الحـيـاه
تـلـقـاه معـاه وفي مـلـتـقـاه
كلام
شـبـه إللي بنقوله كل يوم
لكن منه
كإنه الفطار من بعد صوم
شـاف "لــونها بمـبي"
وقال على الدنيا مغصوب
لا مــنــه عــايــش
ولا مـنـه قـادر ع الهـروب
ده حـال إلـلي يحـس أوي
يشـيـل فوق ذنـبـه الـذنـوب
لا تـلـهـيـه تـفـاهات الحـيـاه
ولا حـتـى يصــبـره أيـوب
شُـفْـت مِنْ غنى لل"ربيع"...؟
كـلامـه الـسـهـل الـمـنـيـع؟
مِـنْ غـنى لـل"فسـحـة"؟
لل"جرس"؟

ومـنـه الـكـل إقـتـبـس
ولألـطـف الـكـائـنـات
غـنى وقـال "الـبـنـات"
مين كلامـه فـيـنا محفور
وبأشـجـانـه لـسـاه بـيْـدوُر
عَـبـَّر عـن كـل الأمـور
يِـعْـجِـب سـكـان الـسـطـح
يِـعْـجِـب سـكـان الـقـصـور
والله ع الإنســجــام
لـمـا بـيـرصـص الـكـلام
جميل، رشـيـق، خـفـيـف ع
الــــــقـــــلــــــب
عـمـر مـا حـد يـقـدر
يـقـراه أبـداً بـالسـلـب
شــطـريـن، في إتـنـين
عِـد الســطــور
زَهـَّر في ذهـنـك الـزهـور
مين غيره قال "كاني وماني"
ومين غيره صـرَّح بالأماني
مين صـرخ و قـال "اه يـاني"
وشَـبِّـه ب"جَـرَّاح بريـطـاني"
غنى وقال "ع الاصـل بانوا"
ولا خـافش من تمليص ودانه

مين قاللك وقاللك: "قاللك
إيه"؟
ومن الحب قلبه رقص "باليه"
حـتى ل"ريـري" غـنى وقـال
إعـلان ولا أجـمـل مـوال
ورد وفَـتَـحُـه على الجـنـبـين
صـلـوا عـلـيـه "صـلاة الـزيـن"
متربع ع الشـعـر، قدره ثمين
كلامـه غـالـب، لمس ملايـين
أكـيـد عـرفـتـه هـو مـين
أيوه هو ..... صلاح جاهين



بقلم:
لوسي كسبيان